سلسلة... من فكر العلماء العاملين 1

مفهوم التّاريخ عند الشّيخ محمّد عليّ دبّوز

تأليف : الدكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

الطّبعة الأولى

الإيداع القانوني: 2011-473

ردمك : 978-9947-0-3121-6

نشر جمعية التّراث

القرارة الجزائر

سلسلة ... من فكر العلماء العاملين (1)

مفهوم التّاريخ عند الشّيخ محمّد عليّ دبّوز

تأليف: الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هذه السّلسلة

من خلال قراءاتي الكثيرة لفكر بعض العلماء العاملين في مجالات التّوجيه والإرشاد والتّربية والتّعليم، ومن خلال جلوسي واستفادتي من تجارب بعض النّاشطين في ميادين العمل الاجتماعي والدّعوي والتّربوي، وجدت عند هؤلاء آراء قيّمة ونظرات جيّدة في أساليب الإعداد والتّكوين والبناء. هذه القواعد كانت منحوتة ومستقاة من تجارب عميقة في الميدان، ومأخوذة من أصول وأسس متينة في العمل والنّشاط والحركة.

بمعنى أوضح: إنّها تتّسم بالواقعيّة والشّموليّة والعمق ومراعاة الواقع المعيش، والبيئة التي تطبّق فيها، وتتّصف بحسن النّظر إلى المستقبل بعين فاحصة، وتقدير ما تهيّئه تلك النّظرات من فضاءات، تساعد النّشء على التّهيّؤ لخوض حياتهم المستقبلية بقوّة وثقة كبيرة...

أهميّة هذه الأفكار تأتي من كونها خضعت لمحكّ الواقع، ومرّت بمخابر التّجارب المتعدّدة، وسلكت دروب المحاولات العديدة بقوّة،

وتناوبت عليها مخاضات كثيرة...حتّى استوت وجاءت قابلة للتّطبيق، ونتجت عنها نتائج طيّبة، وثمار من الأجيال والرّجال الذين عمروا الأرض بالنّشاط والعمل الصّالح المثمر.

في المقابل قرأت في كثير من الأنشطة والمحاولات التي تسعى للقيام بدور البناء والإعداد والتّوجيه...نقصًا في الفعاليّة والحيويّة، وضعفًا في المردود والنّتائج...وقصورًا في فهم رسالة التّوجيه والإرشاد والبناء الشّامل المتكامل. وعجزًا في بلورة الطّموح والرّغبة والإخلاص والصّدق والدّأب...وفقرًا إلى مشروعات، تنطلق من التّفكير الصّحيح، ثمّ تنتقل إلى التّنظير السّليم، بعدها إلى التّخطيط المحكم فالتّسيير الجيّد. هذه الخطواتُ كبيرةٌ، وهي محطّات ضروريّةٌ في عمليّة البناء والتّوجيه؛ لذا تحتاج إلى قوّة وغناء، هذان العنصران يمكن أن يتوفّرا في هذه الخطوات، حين تَقْصِدُ المنابع الصّافية والغنيّة للاستقاء منها. منها هذه المناهلُ التّجاربُ الجيّدة والكبيرة، التي نجدها في أعمال العاملين في الميدان، الذين سجّلوها في أقوالهم وفي النّظريات التي قرّروها، بعد أن خاضوا غمار الحياة، وعجموا عودها، وحلبوا أشطر الدّهر، فسطّروا سطورًا تخطّ الطّريق لمن بريد سلوكها، فبسهل عليه اختصار المسافات،

وطيّ المراحل؛ وبذلك تكون هذه التّجارب قبسات تشعّ، وأنوارًا تضيء...

فكّرت طويلاً في إخراج سلسلة، أعرض فيها هذه الأفكار، ولو باختصار؛ عساها تفيد من يطّلع عليها في معركة البناء والتّشييد والإعداد. اقترحت أن تحمل عنوان: "من فكر العلماء العاملين". أخيرًا قرّرت الشّروع في تحريرها بشخصيّة أستاذي المربّي المجاهد المكافح في مضمار التّربية وبناء الفرد، الشّيخ محمد عليّ دبّوز رحمه الله.

اخترت نماذج من العلماء العاملين، الذين طبّقوا ما دعوا إليه، ونفذّوا ما خطّطوه، وقد نجحوا في كثير ممّا ساروا فيه وصالوا وجالوا، وبذلك نقدّم للرّاغب في السّير في طريقهم أمثلة أو مناويل من العمل الحقيقي، وشواهد ممّا يمكن القيام به، وقد طبّق في الواقع؛ لأنّه ببساطة هو تسجيل للممكن تطبيقه.

ركّزت على مجالات معيّنة، لها علاقة ببناء الفرد، وتكوين الإنسان، وهي ميادين التّربية والتّعليم والتّوجيه والدّعوة والتّاريخ... نرجو أن نكون موفّقين في اقتراح المشروع، ونطلب من الله العون والتّوفيق

في تنفيذه، ونسأله النّجاح في الوصول إلى الأهداف المنشودة منه. إنّه نعم المولى ونعم النّصير.

الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

المقدّمة

التّعامل مع التّاريخ، والإفادة منه، وتقديمه للأجيال الصّاعدة الواعدة بطرق صحيحة ومنهج سليم، يحتاج إلى ضبط قواعد متينة للقيام بهذا، ويتطلّب وعي حقيقة التّاريخ، وتحديد مفهومه وخطره على سيرورة الحياة، وآثاره على من يتلقّاه، ومن يتعلّق به، ومن يهجره ويعاديه على السّواء...كما أنَّ معرفة شروط التّحرّك بالتّاريخ لتحقيق الأهداف المرجوّة منه ضروريّةٌ.

هذه العناصر تستدعي خطوة أولى أساسية، هي فقه مفهوم التّاريخ، ووعي مصطلحاتٍ ونظراتٍ، ينطلق منها الذي يستحقّ أن يحمل صفة (مؤرّخ)، أو يطمح أن يتقلّدها عن جدارة واستحقاق؛ حتّى يعلم جيّدًا ماذا يصنع بالتّاريخ، ويتقنَ أكثر عمله في الميدان. لأنّ التّاريخ مدرسة مهمّة ومحطّة خطيرة في حياة الشّعوب والأمم، إنَّ ما يلقّن فيه ينعكس على حياتها، والأخطاء التي ترتكب باسمه، أو السّلبيّات التي تنتج عن سوء استخدامه في الميدان تكون عواقبُه وخيمة. لهذا وجب حذق طريقة التّعامل مع التّاريخ والتّوجيه بالتّاريخ.

من وسائل ذلك الاطّلاع على تجارب المحنّكين المتمكّنين، الذين يقدّمون آراءهم ونظريّاتهم، مصبوغة وموسومة بالواقعيّة، وبالنّظرة الشّاملة، ومشفوعة بنماذج من الممارسة الفعليّة، والبحث المتواصل الدّؤوب في الأسفار، والسّير في مناكب الأرض بكثرة الأسفار، والجلوس إلى صانعي التّاريخ وطول الاستفسار.

من هؤلاء الذين قاموا بهذه الخطوات، وتركوا رصيدًا معرفيًّا جليلاً في موضوع التّاريخ: تنظيرًا وتطبيقًا، ومدارسة وممارسة، الشّيخ محمد علي دبّوز(1337–1402هـ/ 1919– 1981م)،الذي نقدّم للقارئ الكريم عصارة فكره في مفهوم التّاريخ، عسى أن يحقّق هذا ما أشرنا إليه آنفًا.

من قراءاتي المتكرّرة لما كتبه الشّيخ محمد علي دبّوز في التّاريخ، ومن خلال ما أفدته منه في جلساتي الكثيرة معه ولقاءاتي المتعدّدة به... وجدت أنّ الشّيخ يحمل أفكارًا قيّمة عن التّاريخ، وعن طريقة التّعامل معه، والإفادة منه، وتوجيهه في التّربية والتّكوين. قد تكون خاصّة، ووجدت عنده مفهومًا عميقًا للتّاريخ، يكاد بكون متميّزًا، وفريدا، لم يسبق إليه. هذا الحكم يحتاج إلى تأنٍّ وتثبّت لتقريره، وهو ما تركني

أنتظر تسع عشرة سنة كاملة لنشر ما كتبته عن مفهوم التّاريخ عنده [1]؛ حتّى أتمكّن من إعلان هذا الحكم أو التّخلّي عنه، أي يتمّ هذا بعد الاطّلاع الواسع على ما كُتِبَ عن التّاريخ، وعن تجارب الأقطاب الذين عرفوا في هذا المجال وفي هذا الفضاء. لكنّ الظّروف لم تسمح لي بالقيام بهذه الدّراسة ورصد هذه التّجربة، فرأيت أن أنشر هذه المحاولة الأولى وأقدّم تقديمًا أوليًا مفهوم الشّيخ دبّوز للتّاريخ؛ لما فيه من فوائد، يقف عليها القارئ لهذه السّطور. ولي قناعة كبيرة أنّني سأتوصّل – إن شاء الله – إلى الحكم بأنّ مفهوم التّاريخ عند الشّيخ محمد عليّ متميّز.

أقول في البداية: إنّ مفهومه هذا نابع من تجربته الخاصّة، وممّا أفاده من تربية أولياء أمره له، من والدين ومشايخ وأساتذة، وممّا نقله من تجاربهم في الحياة، وممّا مارسه هو في كتاباته، أيضًا ممّا قرأه في الكتب والمؤلّفات العديدة. وممّا أخذه ولاحظه في البيئات المختلفة التي عاش

1 – كتبنا هذا البحث في صيف 1991م، وحان اليوم موعد نشره، عسانا نتمكّن من التّوسّع فيه مستقبلا إن شاء الله.

فيها وتقلّب وتدرّج، وغيرها من المصادر والمنابع المختلفة، لذا فإنّ ما توصّل إليه وقرّره يتّسم بالعمق والواقعيّة والشّموليّة إلى حدّ بعيد، إلى جانب التّميّز في المفهوم.

بما أنّ الشّيخ كان يرى أنّ التّاريخ وسيلة تربويّة راقية، تجبر كثيرًا من النّقائص التي تعاني منها الوسائل التّربويّة الأخرى، فقد ركّزنا في هذا البحث على هذه النّقطة؛ إذ هي البؤرة التي تنصهر فيها آراء الشّيخ في التّاريخ، وهي المحور الذي يُحرّك بالأشعة التي تنطلق منه عجلةَ العمل التّربوي عنده.

تناولنا النّقط الآتية: التّاريخ والتّربية، التّاريخ للاتّعاظ والتّأسّي، التّاريخ وبناء الرّوح الوطنيّة، التّاريخ والتّربية العقليّة، قواعد تدريس التّاريخ، التّاريخ ودروس الوعظ والإرشاد، التّاريخ والجانب النّفسي، التّاريخ والثّقة بالنّفس، التّاريخ وإزالة العقد النّفسيّة، التّاريخ والإدراك الحسّي، التّاريخ والذّاكرة. عسى أن تكشف هذه العناصر عن بعض الجوانب في مفهوم التّاريخ عند الشّيخ محمد علي دبّوز.

كما يتميّز الشّيخ في المنهج، الذي أثار جدلاً كبيرًا بين المثقّفين

بخاصّة. وقد حاولنا الكشف عن هذا المنهج في بعض المقالات التي نشرناها في بعض الجرائد والمجلاّت، وقد أثبتنا بعضها في الملاحق.

عرضنا في الملاحق بعض الملاحظات وبعض المعطيات، وبعض التّوضيحات التي تكشف عن شخصيّة أستاذنا الشّيخ محمد علي دبوز، وقدّمنا بعض النّقط التي تسهم في وضع بعض الأطر لدراسة شخصيّة محمد علي دبوز، وبخاصّة الشّخصيّة التّاريخيّة (أو الشّيخ مؤرّخا)، كما قصدنا إلى تصحيح بعض المفهومات والأحكام التي قدّمت عن منهج الشّيخ في كتابة التّاريخ، أو تناول التّاريخ[2].

---

[2] - كتبنا عدّة مقالا عن الشّيخ محمد علي دبّوز، نشر بعضها في المجلاّت والجرائد الجزائريّة الآتية: الشّعب ،العقيدة، الواحة، عنوان المقال: " الأديب والمؤرّخ محمد علي دبّوز ونهضة الجزائر الحديثة"، عدد: **18**، يوم: **07** من جمادى الأولى **1412**هـ/ **14** من نوفمبر **1991**م. وفي مجلّة الحياة (التي كان يصدرها معهد الحياة)، ومجلّة النّهضة (سلطنة عمان). في الأعداد: **363**، (**1987/12/09**م) " المؤرّخ الجزائري محمد علي دبّوز في ذكراه السّادسة " وعدد: **528** (**09** من رمضان **1411**هـ/ **26** من مارس **1991**م." الشّيخ محمد علي دبّوز ومنهجه في كتابة التّاريخ". وعدد: **584** (**24** من ذي القعدة **1412**هـ/ **26** من مايو **1992**م، " الشّيخ دبّوز واهتمامه بالتّاريخ الإسلامي".

أقول صراحة: إنّ الشّيخ كان صاحب منهج خاصّ في التّأريخ، يستطيع المتأنّي في قراءة كتبه أن يخرج بتصوّر أو مخطّط خاصّ، كتب به الشّيخ تاريخ الشّخصيّات والبيئات التي تحدّث عنها، وقد التزم بهذا المخطّط، كما تقيّد - إلى حدّ بعيد - بالمعطيات التي سجّلها نظريًا في كتبه، وانطلق منها في الكتابة، وارتبط بالأهداف التي حدّدها في طريقة تناول التّاريخ، وما حدّه من حدود في مفهوم التّاريخ. قد لا يروق هذا المنهج كثيرين، ممّن انتقدوا طريقته. ولكنّنا نسجّل أنّ الشّيخ كان وفيًّا لمنهجه الذي سنّه لنفسه على الأقلّ.

نرجو أن تجد هذه المحاولة مكانًا في دراسة الباحثين بالنّقد والإضافة والرّدّ؛ فالدّراسات هي فضاء رحب للحوار والنّقاش... هذا ما ننتظره بعد نشر هذه الدّراسة، والله نسأل التّوفيق والسّداد.

الجزائر يوم الأربعاء: 09 من شعبان 1431 هـ

21 من جويليّة 2010 م

الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

التّعريف بشخصيّة الشّيخ محمد علي دبّوز[3]

ودّعت الجزائر في الأيّام الأخيرة إلى مثواه الأخير ابنًا من أبنائها البررة، الذين قدّموا لها الكثير، وأسهموا بمجهوداتهم المتواصلة في سبيل إعلاء صرحها، ورفع رايتها خفّاقة في الأفق، بعدما اعتراها ضعف وإجحاف وضيم من أعدائها، من مستعمرين ومغرضين، ومن أبنائها؛ نتيجة تقاعسهم عن أداء الواجب نحوها. إنّه المرحوم الأستاذ محمد عليّ دبّوز.

هو من مواليد مدينة بريّان (دائرة غرداية)، ولاية الأغواط [4] سنة 1337هـ/ 1919م، زاول دراسته الابتدائيّة في مسقط رأسه على يد الأستاذ صالح بن يوسف ابسيس، وفي أواسط الثّلاثينيّات انتقل إلى مدينة القرارة،

3 – هذا التّعربف هو مقال كنّا نشرناه في جريدة الشّعب الجزائريّة، بعد وفاة شيخنا مباشرة، أوردناه هنا، وأبقينا عليه كما نشر. عنوان المقال: "المؤرّخ الرّاحل الشّيخ محمد عليّ دبوز"، جريدة الشّعب، الجزائر، عدد: 5825، الصّادر يوم الأحد: 02 من صفر 1402هـ/ 29 من نوفمبر 1981م.

4 – كان ذلك قبل التّقسيم الإداري، الذي حصل سنة 1984م، تحوّلت بموجبه بريّان إلى دائرة، وغرداية إلى ولاية.

لينضمّ إلى معهدها. وقد تلقّى دروسه على يد الأستاذ الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض (ت1401هـ/ 1981م) والأستاذ الشّيخ عدّون سعيد بن بالحاج شريفي (ت 1425هـ/ 2004م) وغيرهما. وفي أوائل الأربعينيّات غادر القرارة، متوجّهًا إلى تونس للاستزادة من المعرفة. ومنها إلى القاهرة حوالي سنة 1944م، وذلك في مغامرة كبيرة، والحرب العالميّة الثّانية قائمة، والصّراع مستحكم بين الحلفاء ودول المحور، وقد قطع الحدود بين تونس وليبيا؛ مشيًا على قدميه، حسب ما ذكر ذلك زميله الأستاذ أنور الجندي، بل قطع المسافة كلّها إلى القاهرة على قدميه.

في سنة 1948م انضمّ إلى أسرة التّعليم بمعهد الحياة، ليشتغل مدرّسًا لمادتي التّاريخ والأدب. وبقي في هذا الميدان إلى شهر جوان 1981م، حين أقعده المرض الفراش، وقد اشتدّ عليه في المدّة الأخيرة، فتوفّاه الله يوم الجمعة 01 من محرّم 1402هـ الموافق لِـــ 13 من نوفمبر 1981م. تغمّده الله برحمته الواسعة، وأسكنه فسيح جنانه.

لقد عرف عنه أساتذته وأصدقاؤه الرّغبة في التّلقّي، والحرص على التّحصيل؛ منذ عرفوه طالبًا، وعرفوا عنه الإخلاص في العمل؛ منذ عرفوه

أستاذًا مربّيًا.

كان للأستاذ قلمٌ سيّال، ومقدرة كبيرة على تحرير الفصول الأدبيّة، وكتابة المقالات المطوّلة، وقد تجلّى هذا بوضوح على صفحات "جريدة الشّباب"[5]، التّابعة لمعهد الحياة، والتي كان الطّلبة ينشرون فيها مقالاتهم. وكان المرحوم – وهو طالب – ممّن أسهم إسهامًا كبيرًا في تطويرها؛ إذ كان يشارك فيها باستمرار بمقالات في الأدب والنّقد والتّاريخ...ومن أمتع ما يمكن للقارئ أن يطّلع عليه في هذه الجريدة المعاركُ الأدبيّة التي كانت تدور بين الطّالبين عليّ يحي معمّر ومحمد عليّ دبّوز. وهي تندرج ضمن المعارك، التي كانت تدور بين العقّاديّين والرّافعيّين، وهي سلسلة مقالات كان لها دور كبير في تكوين الطّلبة أدبيًّا ولغويًّا. كما كانت للشّيخ أيضًا مشاركات عديدة في جريدة البصائر (التي كانت تصدرها جمعيّة العلماء المسلمين

5 – نشر في جريدة الشّباب حوالي ستٍّ وستّين مقالة. ما بين شهر نوفمبر 1935 وشهر جوان 1942م ومقالين في مجلّة الشّباب.

الجزائريّين) نشر فيها عدّة أعمال أدبيّة.[6]

الشّيخ محمد عليّ دبّوز إلى جانب ذلك شخصيّة مرحة، تميل إلى النّكتة والطُّرفة والدّعابة الظّريفة. وكم كنّا نتمنّى – ونحن طلبة – أن نلتقي معه في قاعة الدّرس، أو يجمعنا به مجلس ليمتعنا بجانب من طرائفه، أو يسمعنا بعضًا من نوادره المسلّية.

كما كان الأستاذ مثالا للنّظام والانضباط، والحرص على الوقت، والمحافظة على المواعيد؛ حتّى أصبح مضرب الأمثال في هذا المضمار.

لقد حمل المرحوم على كاهله عبئًا ثقيلاً، تمثّل في محاولة جادّة إعادة كتابة تاريخ الجزائر والمغرب العربي، وإنقاذه من الضّياع. فبعد مرحلة التّحصيل انكبّ على التّأليف، وأعطى كلّ نفسه ووقته، بل وضحّى براحته وصحّته في هذا السّبيل، يبحث وينقّب ويكتب، هدفُه الوحيد تبصير الأجيال بتاريخهم المجيد، وإزالة الغشاوات التي رانت وترين عليه.

---

6 – نشر في جريدة البصائر الثّانية حوالي سبعٍ وثلاثين مقالة، ما بين شهر جانفي 1948 وشهر مارس 1956م.

كان عمله شاقًّا؛ لأنّ المصادر كانت شبه منعدمة، وما كُتِب عن المغرب العربي كان بأقلام مغرضة، وبأساليب ملتوية، مشوّهة للحقائق، لأنّ كتّابه كانوا إمّا مستعمرين أو مستشرقين حقودين على الإسلام والعرب، أو جاهلين للتّاريخ. يقول الأستاذ أنور الجندي: "...وقد صوّر المؤلّف كيف كان هذا العمل صعبًا كلّ الصّعوبة، وكان طريق هذه العهود مطموسًا، والسّبل غير معبّدة، وأغلب من كتبوا في تاريخ المغرب من المحدثين قد اغترّوا بالمصادر المزيّفة، فردّدوا أغلاط المؤرّخين القدماء، فكان عليه أن يكتب فصولاً جديدة؛ معتمدًا في ذلك المصادر الصّحيحة، وإن كان يسلك طريقًا غير معبّدة" (7)

هكذا وجد الأستاذ محمد عليّ دبّوز نفسه أمام مسؤوليّة عظيمة، وعمل مُضنٍ. كان عليه أن يشمّر عن ساعد الجدّ، ويكثر التّرحال والتّجوال، ويطيل المكوث في المكتبات، ويديم الجلوس إلى الأساتذة والمشايخ، ومن عاصر الأحداث، أو شارك فيها. وقد كانت مصادره بشريّة في كثير من الأحيان.

7 – أنور الجندي، الفكر والثّقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص:311.

فعلاً أمضى مدّة طويلة؛ متنقّلاً بين المكتبات العامّة والخاصّة، في كلّ من الجزائر وتونس ومصر وغيرها؛ باحثًا ومنقّبًا في المخطوطات والمطبوعات، ومقارنًا بنفسيّة المؤرّخ الباحث المدقّق، حتّى تمكّن من إخراج كتابه القيّم:"تاريخ المغرب الكبير"، الذي كان له صدًى كبير في الأوساط العامّة والخاصّة. وقد استقبل أحسن استقبال؛ إذ كتبت عنه الصّحف والمجلاّت في مختلف أقطار الوطن العربي، وتحدّثت عنه الإذاعات، وقرّظته ونوّهت به وبأهمّيته [8]، وعدّته موسوعة، كما ارتأى تسميته بذلك كلّ من الأستاذين محمد عطيّة الأبراشي وأنور الجندي. ويكفيه شرفًا أنّه أوّل كتاب عربي جزائري يطبع بعد استقلال الجزائر.

في مقدّمة الجزء الثّاني من الكتاب يذكر الأستاذ محمد علي دبّوز الأسباب التي دفعته إلى تأليف الكتاب: "...عزمت أن أكتب شيئًا في تاريخ المغرب الكبير بأسلوب أدبي وتحليل فلسفي، وببحث

8 – ينظر إشارات إلى هذا تاريخ المغرب الكبير، ج1، ص: 13، 14. كانت هذه التّقاريظ بعد صدور الجزء الثّاني من الكتاب، الذي كان قبل الأوّل؛ لأسباب شرحها المؤلّف في الجزء الثّاني، ص: 32.

علمي نزيه، يليق لمطالعة مثقّفينا، ويكون مرجعًا ومصدرًا لجامعاتنا ومدارسنا، ويصفّي أبواب تاريخ المغرب التي كدّرتها ودنّستها أكاذيب السّياسة القديمة، ودعايات المستعمرين وسمومهم، فصارت خطرًا على المغرب، ومنبعًا للسّموم، التي تكدّر صفاءَه، وتفرّق جماعته، وتُمكِّن الحسّاد والدّسّاسين من بثِّ الفرقة والشّقاق في مغربنا الحبيب، فكتبت في سنة (1370 – 1372هـ) (1951 – 1953م) مسوّدة الأجزاء الثّلاثة الأولى من " تاريخ المغرب الكبير"، فصرت أفكّر في طبعها، ولكنّني أبيتُ أن أفرغها في القالب النّهائي وأعدّها للطّبع قبل أن أقوم بجولة واسعة لأطّلع على كلّ ما أستطيع الاطّلاعَ عليه من كتب تاريخ المغرب، سيّما المخطوطات القديمة، فزرت في عطلة الرّبيع سنة (1373هـ/ 1954م)خزائن كثيرة من المخطوطات، لا زالت محفوظة في جنوب الجزائر، لم تمتدَّ إليها أيدي الاستعمار، التي جردّت المغرب من كتبه القديمة، ومن مؤلّفات أجدادنا في التّاريخ، فوجدت فيها من الكتب المخطوطة، ومن الوثائق التّاريخيّة شيئًا كثيرًا ممّا أريد، ثمّ عزمت على زيارة مكاتب تونس الخضراء ودار الكتب المصريّة في القاهرة، وكان

الاستعمار الفرنسي قد ضرب الأسوار الحديديّة بين الجزائر والقاهرة والأقطار العربيّة... وبعد مساعٍ ووقتٍ طويل، وقلق كبير حصّلت على تأشيرة الدّخول إلى مصر، على أنّي مارٌّ إلى الحجاز...فسافرت في أوّل العطلة إلى تونس، فمكثت شهرًا في مكتبتها الوطنيّة، وفي المكتبة العبدليّة، اطّلعت فيهما على كثير من مصادر تاريخنا،ثمّ وصلت دار الكتب المصريّة في القاهرة... فوجدت كلّ ترحيب وإجلال ومساعدة، فكنت أطلب أحيانًا عشرين مجلّدًا، فيسرعون بها إليّ...فوجدت الكثير ممّا أريد، فاطّلعت على المهمّ منه، سيّما المخطوطات والكتب المطبوعة النّادرة الوجود..." [9].

الكتَاب تناول تاريخ المغرب كلّه بأقطاره الأربعة: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى. الجزء الأوّل: شمل العصر الحجري إلى الفتح الإسلامي. الجزء الثّاني: كان عن الفتح الإسلامي والعهد الأموي في المغرب. الجزء الثّالث: خصّص للعهد العبّاسي والدّول الإسلاميّة المغربيّة المستقلّة.

---

9 – محمد علي دبّوز، تاريخ المغرب الكبير، ج2، ص: 28، 29.

تجدر الإشارة إلى أنّ الأستاذ محمد علي دبّوز قد سُبق في هذا المجال – على الأقلّ – بما كتبه الأستاذان مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني، وكذلك ما كتبه الأستاذ عثمان الكعّاك وغيرهم. ولكن كما يقول الأستاذ أنور الجندي: وتختلف هذه المؤلّفات عن كتاب تاريخ المغرب الكبير في أمرين:

الأوّل: هو أنّ أغلب هذه المؤلّفات موجزة، وكتبت في ظلّ الاحتلال والحماية، فلم يكن من اليسير أن تتوسّع في كثير من المجالات، مع التّحفّظ في العبارة. وإن كانت ميزتها أنّها كتبت لإيقاظ العقليّة المغربيّة والرّدّ على ادّعاءات كتّاب الغرب في وقت المعركة.

الثّاني: أنّ محمد علي دبّوز(الجزائري) لم يكتب تاريخ الجزائر، إنّما كتب تاريخ المغرب العربي الكبير، بأقطاره الأربعة، على نحو مستفيض، وأنّه أصدر ألف صفحة ليصل إلى ختام حكم الدّولة الرّستميّة، في نهاية القرن الثّالث الهجري... ويضاف إلى هذه الميزة ميزة أخرى هي اتّساع مجال البحث بالمراجعة الكاملة، وحريّة الكلمة في مواجهة ادّعاءات الغربيّين بشأن تاريخ المغرب العربي."[10]

10 – الفكر والثّقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص: 312.

تجدر الإشارة إلى أنّ الأستاذ محمد علي دبّوز قد سُبق في هذا المجال – على الأقلّ – بما كتبه الأستاذان مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني، وكذلك ما كتبه الأستاذ عثمان الكعّاك وغيرهم. ولكن كما يقول الأستاذ أنور الجندي: وتختلف هذه المؤلّفات عن كتاب تاريخ المغرب الكبير في أمرين:

الأوّل: هو أنّ أغلب هذه المؤلّفات موجزة، وكتبت في ظلّ الاحتلال والحماية، فلم يكن من اليسير أن تتوسّع في كثير من المجالات، مع التّحفّظ في العبارة. وإن كانت ميزتها أنّها كتبت لإيقاظ العقليّة المغربيّة والرّدّ على ادّعاءات كتّاب الغرب في وقت المعركة.

الثّاني: أنّ محمد علي دبّوز(الجزائري) لم يكتب تاريخ الجزائر، إنّما كتب تاريخ المغرب العربي الكبير، بأقطاره الأربعة، على نحو مستفيض، وأنّه أصدر ألف صفحة ليصل إلى ختام حكم الدّولة الرّستميّة، في نهاية القرن الثّالث الهجري... ويضاف إلى هذه الميزة ميزة أخرى هي اتّساع مجال البحث بالمراجعة الكاملة، وحريّة الكلمة في مواجهة ادّعاءات الغربيّين بشأن تاريخ المغرب العربي."[10]

10 – الفكر والثّقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، ص: 312.

بعد هذا الكتاب طلع الأستاذ محمد علي دبّوز على القرّاء بسلسلة جديدة، تحت عنوان: "نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة" في ثلاثة أجزاء. أرّخ فيها النّهضةَ الجزائريّة، تناول فيها أسباب النّهضة وعواملها وأهمّ رجالها. وعرض مظاهرها، المتمثّلة في حركات إصلاحيّة ومدارس ومعاهد تعليميّة، وزوايا دينيّة، وجمعيّات خيريّة وثقافيّة، ونوادٍ أدبيّة، ومؤسّسات اجتماعيّة، وغير ذلك. والأجزاء الثّلاثة تمثّل الأدوار الثّلاثة التي مرّت بها النّهضة الجزائريّة، حسب رأي المؤلّف.

بعد ذلك أخرج الأستاذ سلسلة أخرى، سمّاها "أعلام الإصلاح في الجزائر (من عام 1340 هـ/ 1921م إلى عام 1395هـ/ 1975م)"، في أربعة أجزاء، ترجم فيها لبعض زعماء الإصلاح في الجزائر، ممّن كانت لهم إسهامات مهمّة، بل أدوار كبيرة في النّهضة والإصلاح. تتبّع حياتهم بشيء من التّفصيل والتّحليل العميقين لأعمالهم، في كلّ المجالات والأصعدة التي نشطوا فيها؛ مسجّلا بطريقة مطوّلة ومستفيضة الأطوار التي مرّت بها حياتهم، معلّقًا على الظّروف التي تقلّبوا فيها: من اجتماعيّة واقتصاديّة ونفسيّة...شارحًا مواقفهم المشرّفة، ودورهم في الجزائر والعالم الإسلامي...

بدأ بعد ذلك في إعداد سلسلة جديدة، سمّاها "الإصلاح والمصلحون في الجزائر" [11]. انتهى – فعلا – من إعداد الجزء الأوّل، وكان في صدد مراجعته، قبل أن يمنعه المرض من مواصلة عمله، وأن يسلمه الموت إلى الرّاحة الأبديّة.قيّض الله من يكمل مسيرته، ويحمل الرّاية من بعده.[12]

هكذا ذهب أستاذنا إلى ربّه قرير العين، مرتاح الضّمير، وقد

---

11 – أخبرنا بذلك في جلسة جمعتنا به في داره بالقرارة، أيّامًا قبل وفاته.

12 – بعد وفاة الشّيخ ضُمَّ هذا الجزء إلى سلسلة أعلام الإصلاح في الجزائر، فكان الخامس من السّلسلة، وقد خصّصه الشّيخ محمد دبّوز لأستاذه الشّيخ إبراهيم بيّوض رحم الله المشايخ جميعًا. إنّ الشّيخ محمد عليّ دبّوز وعد أن يوصل سلسلته " تاريخ المغرب الكبير "إلى عشرة أجزاء. توفيّ وقد طبع من كتبه عشرة، وهي مجموع مؤلّفاته الثّلاثة. هل نقول: إنّ الله استجاب لأمله، فتوفّاه وقد أخرج ما وعد به، وبذلك يكون الشّيخ قد وفّى بوعده؛ لأنّ كتبه كلّها تتناول المغرب العربي، مع ظفر الجزائر (بلده) بحصّة الأسد في الكتابين الثّاني والثّالث.؟ نسجّل أنّ كثيرًا ممّا جمعه الشّيخ من تاريخ الجزائر – بخاصّة – ما يزال في مسوّدات، وبعضها حبيس أشرطة...أرجو أن يُتَبَنّى مشروعٌ من مكتبة الصّفاء ببريّان، أو جمعيّة الحياة التي قضى معها الشّيخ ثلاثًا وثلاثين سنة مدرسًا ومربّيًا للأجيال، أو جمعيّة التّراث بالقرارة، التي تتبنّى نشر التّراث...أو جهات أخرى. مشروعٌ يتكفّل بنشر ما تركه الشّيخ، وإعادة طبع كتبه التي نفقت ونفذت في السّوق، وأصبح الطّلب عليها كثيرًا.

أدّى ما عليه، وقدّم للأجيال تاريخهم صافيًا من أغلاط المغرضين، وأباطيل الحسّاد، وشطحات المستشرقين. وأيقظ النّفوس الخاملة من سباتها العميق؛ لتنهض كي تقوم بواجبها نحو تراثها وأمجاد آبائها.

إنّ شيخنا – حسب رأيي – قد وفّق - إلى حدّ بعيد - في رسم الطّريق لمن يأتي بعده كي يسير في نهجه، واستطاع أن ينقذ التّاريخ من الضّياع، ويربط الأجيال بالنّاصع من تاريخهم؛ حتّى يعتزّوا بشخصيّتهم التي حاول الاستعمار طمسها. فإذا كانت هناك مآخذ تؤخذ على أستاذنا، سواء في المنهج، الذي اتّبعه، أو في المبالغات التي غدت سمة من سمات كتاباته...فلا يكفي أن نتحدّث عنها من وراء الحجب والجدر والأقنعة، وإنّما يجب أن نبرز إلى الميدان، ونقدّم أدلّة على صدق نوايانا، وحرصنا على العمل الجادّ؛ بالبحث والكتابة. فيكفي الأستاذ شرفًا أنّه مهّد الطّريق، وتحمّل العبء الثّقيل، واضطلع بمهمّة شاقّة. وإذا كانت هناك نقائص وعيوب تحسب عليه، فأيّ إنسان لا يرتكب الأخطاء؟؟

نرجو أن يوجد من يخلف الأستاذ في جهاده، وبخاصّة معشر المثقّفين والأساتذة. تغمّد الله شيخنا وفقيدنا برحماته الواسعة، وأسكنه فسيح جنانه.

محمد بن قاسم ناصر بوحجام

معهد الحياة، القرارة، الجزائر

التّاريخ والتّربية

التّاريخ في مفهوم الشّيخ محمد علي دبوز وسيلة تربويّة مهمّة وضروريّة، بل إنَّ المنطلق والمنتهى عند الشّيخ حين الحديث عن التّاريخ هما التّربية؛ لأنّ التّاريخ مرتبط بها، ومُوصِل إليها. لذا عُنِيَ به كثيرا: فمن النّاحية النّظريّة أنار التّاريخَ بمجموعة من النّظريّات والنّظرات والآراء، التي تكشف عن حقيقته ومزاياه، وضرورة الاحتفاء والاعتناء به؛ عاملاً مُهمًّا في التّربية. ومن النّاحية التّطبيقيّة قدّم صورا عمليّة وحيّة لهذا التّاريخ، التي جسّد فيها هذه الآراءَ والنّظريات، من خلال شخصيّاته التّاريخيّة، التي أرّخها، وتعامل معها.

يقول الشّيخ: "إنّ التّاريخ هو الفن العظيم الذي حَرَمَنَا الاستعمارُ البغيضُ منه و حرَّمَهُ علينا، فيجب أن نبادر بعد استقلال المغرب، فنأخذ حظَّنا منه، وننتفعَ به في تربيّة الأجيال القادمة" (13)

يُبدِي الشّيخُ تحسّره من حرمان الأجيال من مقوّم أساسٍ من

13- محمد عليّ دبوز، تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 26، 27.

مقوّمات الشّخصيّة، ومن أسٍّ وركيزة مُهمّة من ركائز التّربيّة والتّوجيه؛ لهذا نادى في بداية الاستقلال (استقلال الجزائر) بضرورة الالتفات إلى التّاريخ، والأخذ منه بسبب ونصيب؛ لِجَبْرِ النّقص الذي كانت تعاني منه التّربيّة، تحت هيمنة استعماريّة غاشمة، وتوجيه صليبي حقود، فهو لهذا يرى أنّ تاريخ الإسلام- و تاريخ المغرب جزء منه- هو الغذاء الصّحيح اللاّزم لتربيّة النّشءِ :"... ولكن كِتابَ المغرب هو الذي يرى العالم فيه حقيقته، وهو قبل هذا الغذاء الصّحيح اللاّزم لناشئتنا وأمّتنا، والوسيلة الكبرى لتربية المجتمع، وتوجيهه إلى المثل العليا، التي كابدنا طويلا، وجاهدنا الاستعمار من أجلها". [14]

يعضد هذا المعنى الدّكتورُ فاروق عمر: "إنّه عمليّة توجيه وتوعية و تعبئة متكاملة للجيل الجديد". [15]

مِمّا يؤكد ارتباط حقيقة التّاريخ بالتّربية، في نظر الشّيخ محمد علي دبوز أنّ الدّارس يلاحظ تردّد عبارات كثيرة ومتكرِّرة، تكشف عن

14- تاريخ المغرب الكبير الجزء الأوّل، ص: 12.

15- د. فاروق عمر فوزي، التّاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين، ص: 7 .

الدّور التّربوي للتّاريخ. المتصفِّحُ لكتبه يلتقي مع العبارات الآتية: إنّ التّاريخ أكبر وسيلة للتّربية العقليّة والخلقيّة... إنّ التّاريخ للتّربيّة الصّحيحة و لبثّ الرّوح القويّة... إنّ التّاريخ أجدى في التّربيّة من دروس الأخلاق النّظريّة...هو من الوسائل الكبرى في التّربيّة الحسنة. لنحقِّق النّتائج التّربويّة بالتّاريخ. "إنّ التّاريخ أكبر عامل في التّربيّة الخلقيّة، وأقوى سبب يخلق الأخلاق العظيمة في النّفوس، والأخلاقُ العظيمة هي أساس رقيّ الإنسان في عقله، وفي جسمه، فهي التي تستتبع كلَّ المزايا، وتقتضي تفوّقنا في كلّ النّواحي" [16]

يكشف هذا النّصّ عن الدّور الكبير الذي يعطيه الشّيخ للتّاريخ. فمن المقدّمات التي رتّب بعضها على بعض. والنّتائج التي وصل إليها يتبيّن لنا الدّور الرّائد والأساس للتّاريخ في مجال التّربيّة. (التّاريخ أكبر عامل في التّربية و أقوى سبب يكسب الأخلاق الحسنة. الأخلاق سبب رقيّ الإنسان في عقله و جسمه. الأخلاق تستدعي وتجلب كلّ الخصال والمميّزات الأخرى، وهذه المكاسب

16-تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 14.

توصل إلى التّفوّق في كلّ النّواحي الأخرى...) إلى غير ذلك من سلسلة النّتائج الحسنة، التي يشدّ بعضها برقاب بعض. والتي يكون التّاريخ هو المتسبِّب فيها. ثمّ إنّ الشّيخَ يقرن كثيرا بين لفظتي "المربّي، والتّاريخ" ويربط بين مدلولاتهما ربطًا محكما؛ ليثبت أنّ التّاريخ للتّربيّة فقط. تردّدت في كتبه العبارات الآتية: (يجب على المربّي في درس التّاريخ، إنّ المربّي لا يستطيع أن يكون على ذلك الحماس، و على تلك الروح المؤثّرة في التّاريخ... الذي يؤثره المربّي في نفس التّلميذ بدرس التّاريخ).

إذا كان للتّاريخ هذا الدّور التّربوي المُهمّ، فما هي نظرات الشّيخ، وما هي آراؤه في ذلك؟

التّاريخ هو الذي يَحُفُّنا ببيئة اجتماعيّة راقيّة من أجدادنا، فنعاشرهم، ونتأثّر بأخلاقهم، ونتطبَّع بطباعهم،وذلك من خلال اطّلاعنا على ما خلّفوه من تراث، يتمثّل في قيمهم وسلوكهم وأخلاقهم، وما سجّلوه من مواقف وما تركوه من آثار أدبيّة وفكريّة، تتضمَّن آراءهم ونظراتهم إلى الحياة والكون، وإلى حقيقة العمل

والسّلوك، في خطبهم ووصاياهم ورسائلهم وأحاديثهم وكتاباتهم بصفة عامّة.

ما دام للتّاريخ هذه المكانة وهذا الدّور، إذن هو الذي يسعى إلى توجيهنا: "فيَكُونُ وجدانا لنا يذكي فينا الحماس لمثلهم العليا، فنعمل لتحقيقها، والرّغبة في طريقتهم المثلى، وفي نهجهم القويم، فنتمسّك به، ونندفع فيه، فنصل الدّرجة الرّاقية التي كان عليها الأجداد، ونكون مثلهم في العزّة والإباء، وفي الطّموح والمحاولة، وفي العمل والكدّ، وفي الإخلاص والإتقان، وفي العمل لله. وتلك هي أسباب النّجاح والتّفوّق، وعوامل القوّة والتّقدّم"[17]

بالتأمّل في هذه النّظرة، وهذا التّقرير نكتشف حرصَ الشّيخِ الكبيرَ على إعداد الشّخصيّة القويّة والمتماسكة، التي تقوى على المجابهة والمقاومة، ومن بعدها تتمكّن من المحافظة على أصالتها، وعلى قوّتها وجدارتها في ضمان البقاء، بل في الاستمرار في التّطوّر والتّقدّم. في هذا المعنى يقول الدّكتور فاروق عمر: "إنّ التّاريخ يخلق

17 – المصدر السّابق، ص: 13.

الشّخصيّة الإيجابيّة ذات الأثر الفعّال في مجرى الحياة، والمقصود بالشّخصيّة الإيجابيّة هي الشّخصيّة التي تقوم على الولاء للوطن والإخلاص لأهداف الأمّة، والعلم بطرق تحقيق تلك الأهداف والعزيمة القويّة، التي تدفع للإسهام في هذا التّحقيق" [18]

لهذه الغايات التّربويّة التي تتحقّق بالتّاريخ يقول محمّد علي دبّوز عن الصّفات التي يكتسبها الشّخص من البيئة الاجتماعيّة الراقيّة من تاريخ السّلف:"ولا يتّصف بها إنسان إلاّ تغيّر حاله، وتبوّأ أرفع الدّرجات في كلّ النّواحي، وكان الله معه؛ ليحقّق له كلّ الآمال، فيكون هو السّيّد الذي يسود غيره، والذّروة التي تشمخ على سواها، فلا يستطيع عدوّ كاشح أن يخضعه، ولا لصّ مُخَاتل أن يحتلَّ داره، ولا مستعمر غشوم أن يتسلّط عليه"[19].

من هذه العبارات الواردة في النّصّ يتبيّن لنا أنّ الشّيخ يعتمد اعتمادا كبيرا على التّاريخ لحماية الكيان والمحافظة على الشّخصيّة وردّ

18- التّاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين، ص: 8.

19- تاريخ المغرب الكبير الجزء الثّاني، ص: 13، 14 .

العدوان عنها، وقد انطلق في كلّ ذلك من حقيقتين:

1 - إنّ الإنسان مركّب من غرائز و ميول فطريّة، مثل غريزة حبّ الظّهور، التّقليد، الخوف، المشاركة الوجدانيّة...هذه الغرائز الفطريّة هي أساس تربيّة الفرد وأخلاقه، وتغيّره وتطوّره وبلوغه أرفع الدّرجات. وهي التي تصبغ حياته الاجتماعيّة، وتطبعها بطابعها، حسب ما يجده الفرد من توجيه خاصّ وإمكانات لتهذيب تلك الغرائز، وتلك الميول الفطريّة. فإذا ما أُسِيءَ توجيهُها نَشَأَ الإنسانُ منحرفا، على طريقةِ من يختلط بهم، ويعاشرهم، ويكون نسخة ممّن نشأ معهم وتأثّر بهم؛ لأنّ التّوجيه كان خاطئا، والإمكانات المسخّرة كانت غير صالحة. بينما البيئة التّاريخيّة يمكنها تعويض تلك النقائص.

يتأيّد رأي محمد علي دبوز بما قرّره بعض الدّارسين من أنّ على المؤرّخ تقع مسؤوليّة كبيرة في الاتّجاه الذي يجب أن تسير فيه الأمّة. يقول فاروق عمر: "فالمؤرّخ أيّ مؤرّخ ينتمي إلى أمّة، عليه أن يكون مخلصا لأمّته، مواليا لها مثل ولائه للحقيقة وللإنسانيّة، وعلى المؤرّخ تقع مسؤوليّة تبصير مواطنيه بقضاياهم المصيريّة، والأزمات المرتقبة،

وأن يقف إلى جانب أمّته منذرا ومبشِّرا ومشجِّعا"[20].

2 – ما لاحَظَهُ الشّيخ محمد علي دبوز من هجوم على الشّخصيّة الإسلاميّة، من الأعداء الحاقدين والمغرضين النّاقمين، وما لمسه من استهانة بها من أبنائها، الذين لم يشربوا حبّها، ولم يدركوا حقيقتها، وما رآه وأحسّ به من التّشكيك في أصالتها من بعض مهزوزي الوجدان، ورقيقي الإيمان وضعيفي الوطنيّة. فخاف على هذه الشّخصيّة أن تتفكّك وتنهار، إن اعتمد فيها على البيئة الواقعيّة الموبوءة، أو غير القادرة على حماية هذه الشّخصيّة، وتعزيز مكانتها في نفوس المنتمين إليها. لذلك حذّر من العدوّ الكاشح واللّصّ المخاتل والمستعمر الغشوم أن يتسلّطوا عليها، وذلك باللّجوء إلى البيئة التّاريخيّة، التي تفوّت الفرصة على هؤلاء، عوضا عن البيئة الاجتماعيّة الواقعيّة التي تكون عاجزة – غالبا – عن القيام بهذا الدور، بل أحيانا يشوبها ويقترن بها كثير ممّا يضعف أخلاق الفرد، وبذلك تقلّل من نجاحه في الحياة.

20– التّاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص: 7.

إذن يجب الاعتناء بالتّاريخ في البيوت والمدارس والمجتمع؛ لأنّنا به نستطيع: "اختيار العصور الزّاهرة والشّخصيّات العظيمة، كالرّسول والصّحابة والتّابعين والسّلف الصّالح، ورؤساء دولنا وكبار علمائنا. ونختار من التّاريخ ما هو حسن، فنجعله بيئة للتّلميذ، ينغمس فيها، ويشغف بها ويعاشرها بالقراءة اللّذيذة والدّرس العميق. إنّ لهَذا أحسن من البيئة الاجتماعيّة الواقعيّة، التي قد لا نستطيع أن نعزل منها ما لا يرضينا، ولا نجد فيها كلّ المثل العليا، التي نريدها ". (21)

إنّ الشّيخ يقتدي - في هذا السّبيل – بالقرآن الكريم، الذي يعتمد أسلوب القصّ التّاريخي وسيلة من وسائل التّربيّة، فيطلعنا على صبر أيّوب، ويقين إبراهيم، وعفّة يوسف، ونسك عيسى وعظمة محمّد عليهم الصّلاة والسّلام، ويكمل لنا ما يعوز بيئتنا الاجتماعيّة بذلك التّاريخ.

ويضرب الأمثلة في نجاح هذه الوسيلة التّربوية (التّاريخ) بما كان يقوم به مشايخه، وبخاصّة أستاذه الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض.

21– تاريخ المغرب الكبير الجزء الثّاني، ص: 17.

يقول عنه: "إنّ غرض الشّيخ بيّوض هو تربيّة العامّة وتهذيبها وتثقيفها بتاريخ الصّالحين؛ لأنّ التّاريخ، سيّما تاريخ الرّسول والصّحابة وتاريخ المغرب، من أحسن العلوم التي تثقّف العقل، ثمّ إنّه أكبر واعظ بالمحسوس، الذي يتأثّر به الإنسان أكثر، وإيمانه به أقوى. وقد أكثر القرآن من ذكر القصص التّاريخي في أغلب سوره؛ لأنّ التّاريخ أحسن واعظ للإنسان، سيّما إذا كان تاريخ أجداده، وقع في أرضه، كَسِيَر مشايخ المغرب وتاريخ زمانهم المجيد." [22]

إنّ من شأن تلك الأخلاق التي نستقيها من التّاريخ من سِيَر أصحابها، التي نكرّرها و نتأمّل فيها، من شأن ذلك أن يساعدنا على التّربية الحسنة، بترسيخ تلك الفضائل في نفوسنا، وقد استفيدت من ناس أفاضل أخيار؛ لأنّ عدواها لا شكّ ينتقل إلينا، فنكون على غرار من نقرأ تاريخهم وننشأ على منوالهم.

لعلّ ما لاحظه الأستاذ محمّد عليّ دبّوز من الانقلابات الخطيرة التي حدثت في المحيط الاجتماعي، وما ساده من أخلاق بعيدة عن الرّوح

22 - أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص: 116، 117.

الإسلاميّة، وما رآه من انحرافات لا تقوى على أن تنشئ لنا أجيالا مستقيمي السّيرة، يتّصفون بما يتّصف به الرّجال، الذين تقوم عليهم مسؤوليّة قيادة الأمّة، وبناء الوطن؛ إذ يصعب على المربي انتقاءُ ما يخدم شخصيّة الطّفل وينمّيها تنمية سليمة، وصرفُه عمّا يهدم فيه مقوّماتها. لعلّ هذا هو الذي جعله يعتقد أنّنا نستطيع أن نجبر هذا النّقص، ونتلافى هذه السّلبيّات بالتّنقيب في ذاكرة الزّمن، وفي أعماق الماضي عن المواقف المشرّفة، وما يكون قدوة للطّفل، يساعده على تشكيل شخصيّته، وبناء نفسه؛ فنهيِّئ له البيئة الحسنة الصّافية الرّاقية، التي يترعرع وينشأ فيها، مادمنا عاجزين عن التّحكم في البيئة الواقعيّة.

هذا رأي له وجاهته ونصيبه من الصِّحة إذا نظرنا إليه من زاوية التّربيّة والتّوجيه. يبقى للمتخصّصين أن يبدوا وجهات نظرهم فيه. يمكن لنا أن نستنير ونستأنس في هذا المجال بما قاله الدّكتور يوسف جعفر سعادة: "والتّاريخ من الوسائل النّاجحة لدمج الفرد في الحياة الاجتماعيّة، فالطّفل بعد أن يتمثّل طراز حياة الجماعة التي ولد فيها، يتمثّل عن طريق التّاريخ ذكريات هذه الجماعة وتقاليدها وعاداتها وروحها، ويرتبط بها مع كلّ ما ينمو لديه من عواطف ومشاعر...

فبالنّظر إلى الماضي نستطيع أن نكرّر الإنجازات العالية، وأن نتجنّب الأخطاء، وعليه يجب أن تكون دراسة الماضي مفيدة لإرشاد النّشاط الحاضر". [23]

في سبيل الوصول إلى الأهداف التي يصبو إليها الشّيخ بواسطة التّاريخ، وهي أهداف تربويّة خالصة، ينبِّه إلى أمر مُهمّ، وهو دراسة الشّخصيّات التّاريخية التي تتوفّر على قيم، وعلى أنماط السّلوك، التي لها دور في مجرى الأحداث التّاريخية، ولها تأثير على وتيرة الحياة، وبخاصّة الشّخصيّات الإيجابيّة، ثمّ الوقوف على العوامل التي ساعدت على تكوينها، وإيجادها على تلك الصّورة؛ للإِفَادَةِ من نشاطها، ولرسم الطّريق الصّحيح في الحياة للأجيال الصّاعدة، تكون مبنيّةً على أسس تربويّة، تدعمها الخبرة. لهذا رَدّ على الذين يعيبون عليه الإطناب – أحيانا – في بعض الجوانب قائلا:"وقد توسّعت في العوامل التّربويّة، التي كوّنت عبقرية أعلام الإصلاح في الجزائر وخلقهم العظيم، لأنّ التّاريخ للقدوة الحسنة والموعظة والمعرفة...

23– الدّكتور يوسف جعفر سعادة، دور القراءات الخارجية في تدريس التّاريخ، ص: 59، 60.

إنّ الحديث عن العوامل التّربوية العظيمة التي كوّنت الشّخصيّة العظيمة في أعلام الإصلاح من أهمّ ما يجب أن يُعنَى به المؤرِّخ، لأنّها أسرار خفيّة تُنْسَى، لا يستطيع الاهتداء إليها جميع النّاس، وإن كانوا علماء، أمّا جهادهم فخالد في آثارهم المرئيّة، يستطيع هذا الزّمان والأجيال المقبلة أن تعرفه، ثم إنّ بيان العوامل التّربويّة التي كوّنت أعلامنا هو الذي يجعلنا نأخذ بها، فيكون لأمّتنا دائما مثلهم." [24]

الشّيخ محمد علي دبّوز ليس بدعا من الباحثين المؤرّخين والمربِّين على السّواء، الذين يقرّرون هذه القاعدة، ويرون هذا الرّأي، ويثبتون دور دراسة العوامل التّربويّة في التّوجيه والتّكوين، فالأستاذ "ج. هرنشو"يقرِّر بدوره هذه الفكرة. ويتّفق مع الشّيخ محمد علي دبوز تمام الاتّفاق، يقول: "إنّ الوقائع والآثار مغمورة بمحيط من الآراء والإرادات والانفعالات، التي كانت تلك الوقائع والآثار معبِّرة عنها أو أثرا لها، هذه الآراء والإرادات والانفعالات حقائق نهائيّة ثابتة للرّوح البشري، وخارجة بالمرّة عن متناول المعاينة المباشرة، حتى بالإضافة إلى

24- محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر. الجزء الأوّل، ص: 10.

من شهد الوقائع، أو أقيمت بينهم الآثار. والمؤرِّخ إنّما يبحث في آخر الأمر عن هذه العوامل الخفيّة، التي تبعث النّاس على العمل، يبحث عن هذه الحقائق الرّوحية الخالدة على وجه الزّمان". [25]

من هذه الأقوال، وهذه النّظرات، يبدو لنا جليّا الدّور التّربوي للتّاريخ. هذا الدّور يُمكن أن يؤدّيه (أي التاريخ) إذا عُرِفَت حقيقتُه، وقُدِّم بطريقة سليمة، ونُهِج به نهجَه الصَّحيح. من ذلك اتِّخاذُه وسيلة للاتِّعاظ والتَّأسِّي والقدوة الحسنة. وذلك ما أشار إليه الشّيخ في كتاباته، وهو ما نحاول توضيحه اعتمادا على وجهة نظر الشِّيخ نفسِه في المبحث الآتي:

25- ج، هرنشو، علم التاريخ، ترجمة و تعليق عبد الحميد العبّادي، ص: 8، 9.

التّاريخ للاتّعاظ والتّأسي

مادام التّاريخ وسيلة تربويّة مُهمَّة في صرح العمل التّوجيهي والإرشادي العام، فإنّ الأستاذ محمد علي دبّوز يركّز كثيرا على جانب الاتعاظ والاعتبار والتأسّي في التّاريخ، ويعلّق على الأحداث، ويقوّم المسيرات، ويحلّل الواقعات، ويفصّل المواقف، ويستقرئ الوقائع، إذ التّاريخ ليس سردا للوقائع، وتسجيل التّواريخ، إنّما هو أعمق من هذا. إنّه: "للقدوة الحسنة والموعظة والمعرفة، فإذا خلا من هذه فهو قشور لا نفع فيه، وكلام غثّ لا فائدة منه." [26]

يقول رمضان حمود: "ليس التّاريخ سردَ الوقائع سردًا وحشرَها في بطون الكتب حشرًا، وهو أفضل الفنون وأنفعها لتربية النّفوس، وتثقيف العقول". [27]

يؤكّد الدّكتور فاروق عمر على هذه الحقيقة، ويبيّن أنّ إيجاد الشّخصية الإيجابيّة، التي تستفيد من التّاريخ وتتّعظ بالمواقف،

26- أعلام الإصلاح في الجزائر، الجزء الأوّل، ص: 10.

27- الدّكتور محمد ناصر، رمضان حمود حياته و آثاره، ص: 257.

وتتربّى بالأحداث "لا يتمّ بالطّرق التّقليديّة، بل بدراسة مستنيرة موجّهة، لا تقف عند الأحداث والتّواريخ، بل تتعدّاها إلى توضيح المغزى الحقيقي لكلّ حادثة في تاريخ العرب والإنسانيّة". [28]

بناء على ما تقدّم فإنّ الشّيخ محمد علي دبوز يرى وجوبًا: "أن نقف في هفوات الأجداد، وما أثار الأعاصير عليهم، فنصوِّره للأحفاد، ونحذّرهم منه، ونفتح عيونهم على ما أودى بدولنا القديمة من أمراض كالانغماس في المدنيّة، والرّكون إلى الرّاحة والاتّصاف بالأنانيّة وبالعصبيّة القبليّة والمذهبيّة، وبالحسد الذي هو أمّ الخبائث كلِّها، وهو الذي أودى بدولنا الإسلاميّة، وشقّ جماعة المسلمين، فداخلها سوس الاستعمار، ورتع فيها ذباب أوروبا وطمعت فيها كلّ الحشرات الضّعيفة ". [29]

الأستاذ يُبيِّن أنّ من أساسيّات التّاريخ أن يكون للاتّعاظ والاعتبار من أحداثه؛ إذا أردنا أن نُفيدَ منه حقًّا. بل يجب أن تكون

28- التّاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص: 8.

29- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 21.

لنا الشّجاعة الكاملة، والجرأة الحقيقيّة في الوقوف عند أخطاء السّلف لإِطْلاعِ الخلف عليها، حتى يختطّوا لأنفسهم طريقا سليمة، فلا يكرِّروا أخطاء آبائهم.كما يجب أن نتحمَّل مسؤوليّاتنا التّربويّة كاملة، ونُخْلِصَ في توجيه ناشئتنا بواسطة التّاريخ، فلا نخاف منه، لأنّ خوفنا منه يجني عليه وعلينا جناية كبيرة. [30]

نلاحظ أن الأخطاء التي عدّدها الشّيخ للآباء ولبعض دولنا الإسلاميّة، وهفوات أجدادنا التي سجّلها عليهم، نلاحظ أنّها أخطاء تحكّمت فيها الغرائز التي لم يُحسَن توجيهُها وتهذيبها.

هذا العمل الكبير الذي نقوم به، ونحن نعتبر بالتّاريخ الصّحيح ونتَّعظ، يزيلُ عن الأبناء كثيرا من العقد النّفسيّة التي غرسها في نفوسهم الحانقون على الإسلام والمسلمين، والمتربِّصون به الدَّوائر؛ لضربِ وَحدة المسلمين. ويُبعِدُ عنهم الآثار السّيِّئة التي ركَّزها فيهم بعض الذين لا يحسنون التّربيّة والتّوجيه، فلا ينبِّهون النّاشئة إلى

30- ينظر مقالنا "نخاف من التّاريخ فنجني عليه"، جريدة النّصر، قسنطينة، (الجزائر) عدد: يوم: 13-01- 1988.

الأخطاء والذّنوب التي جرّت الأجداد إلى عواقب وخيمة، احتفظ بها التّاريخ في ذاكرته. بل إنّ الشّيخ يذهب إلى أبعد من هذا فيقول: "إنّ هذا أكبر فرض يجب على المربّي في دروس التّاريخ أن يقوم به، وإلاّ يكون مقصِّرا في التّربيّة، مخلاّ بواجبه الوطني، لم يأت أهمّ ما يجب عليه في بناء الجيل الجديد، الذي يجب أن يكون خاليا من العقد النّفسيّة الموروثة، ومن العقائد البالية الفاسدة؛ ليكون صفًّا مرصوصا، وبنيانا متينا، فيصل بمغربنا الحبيب إلى الذّرى العالية، التي تؤهِّله لها متانة أخلاقه، والبطولة الموروثة من أجداده، وتمسّكه بدينه، وبالأخلاق الإسلاميّة التي تسعده وتُنيلُه رضا الله"[31].

يؤكد هذه الحقيقة، وهي الاتّعاظ بالتّاريخ وأخذ العبرة منه أحد الدّارسين: "ومن هنا كانت أهميّة المطالعة والقراءة في كتب التّاريخ، حيث أنّنا سندرس المجتمع، وتتّضح لنا نواحي الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة في المجتمع، ونقارن بين مجتمعات الماضي بعضها البعض، ونقارنها مع مجتمعات الحاضر، فنرى أوجه

31 - تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 21.

الأخطاء والذّنوب التي جرّت الأجداد إلى عواقب وخيمة، احتفظ بها التّاريخ في ذاكرته. بل إنّ الشّيخ يذهب إلى أبعد من هذا فيقول: "إنّ هذا أكبر فرض يجب على المربّي في دروس التّاريخ أن يقوم به، وإلاّ يكون مقصِّرا في التّربيّة، مخلاّ بواجبه الوطني، لم يأت أهمّ ما يجب عليه في بناء الجيل الجديد، الذي يجب أن يكون خاليا من العقد النّفسيّة الموروثة، ومن العقائد البالية الفاسدة؛ ليكون صفًّا مرصوصا، وبنيانا متينا، فيصل بمغربنا الحبيب إلى الذّرى العالية، التي تؤهِّله لها متانة أخلاقه، والبطولة الموروثة من أجداده، وتمسّكه بدينه، وبالأخلاق الإسلاميّة التي تسعده وتُنيلُه رضا الله"[31].

يؤكد هذه الحقيقة، وهي الاتّعاظ بالتّاريخ وأخذ العبرة منه أحد الدّارسين: "ومن هنا كانت أهميّة المطالعة والقراءة في كتب التّاريخ، حيث أنّنا سندرس المجتمع، وتتّضح لنا نواحي الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة في المجتمع، ونقارن بين مجتمعات الماضي بعضها البعض، ونقارنها مع مجتمعات الحاضر، فنرى أوجه

31 – تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 21.

الاختلاف بين المجتمعات خلال تعاقب العصور". [32]

نلاحظ في مقولة الشّيخ محمّد علي دبّوز التّركيز على الجانب الوطني في العمليّة التّربويّة المعتمدة على التّاريخ وأحداثه، وهو ما عبّر عنه بالواجب الوطني في عمل المربّي في دروس التّاريخ، وقد أكدّ على العمل للوصول بمغربنا الحبيب إلى الذّرى العالية بالإِفادة من التّاريخ في هذا المجال. فكيف يكون التّاريخ عاملا من عوامل بناء الوطنيّة ؟

32- دور القراءات الخارجيّة في تدريس التّاريخ، ص: 60، 61.

التّاريخ وبناء الرّوح الوطنيّة

يقول الشّيخ محمّد علي دبّوز: "إنّ التّاريخ أكبر عامل لبناء الأمم ونهضة الشّعوب، وهو من الوسائل الكبرى في التّربيّة الحسنة." (33)

يعني الشّيخ أنّ التّاريخ أقوى عامل في بناء الوطنيّة، وبثّ روحها وتركيزها في النّفوس. لِتَتَوطّد العلاقة بين الوطن والمنتمين إليه، ويتعزّز هذا الانتماء، وتتمتّن الرّوابط بين أبناء الوطن الواحد، والأمّة الواحدة، وتتّحد المشاعر، ويكون تصوّر المستقبل واضحًا ومنسجمًا مع مكوّنات الأمّة وأهدافها وآمالها.

أكّد الشّيخ على ذلك في كتاباته مرّات كثيرة، وبعبارات مختلفة. فبعد أن بيّن ضرورة تطهير تاريخ المغرب الإسلامي من دعاية السّياسة القديمة، ومهاترات الاستعمار، أوضحَ أنّ الغـاية من ذلك: "ليكون التّاريخ نفعا خالصا للأمّة، وسببَ وحدة ومحبّة، تجعل أمّتنا الكبرى كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا." (34)

33- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 16.

34- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّالث، ص: 11.

إنّ هذا الهدف، وهو توحيد الرّؤية والمشاعر، الذي يوصِل إلى توحيد الصّفّ – بفعل التّاريخ – يتطلّب معرفة السّلوك الذي يجب تبنّيه؛ لتمكين هذه الرّوح الوطنيّة في النّفوس، وتعزيز هذا الانتماء في القلوب، وهو ما تكشف عنه العمليّة التّاريخيّة. والتّاريخ وحده – من بين العلوم الإنسانيّة – الذي يقوم بهذا الدّور. يقول فاروق عمر: "إنّ العمليّة التّاريخية التي يكشفها التّاريخ تبيّن الاتّجاه الذي يجب أن تسير فيه الأمّة. إنَّ هدفنا هو أن نُعِدّ المواطن، لا ليعيش في حاضر دائم، بل في حاضر متطوِّر نحو مستقبل، يجب أن يكون خيرا من الحاضر. هذه هي الوظيفة الوطنيّة للتّاريخ، وهي وظيفة، لا يمكن أن يؤديها غيرُ التّاريخ من العلوم الإنسانيّة." [35]

لهذا يقرر محمد علي دبّوز: "أنّ تاريخ أجدادنا هو الذي يؤثِّر فينا أكثر، فيجب الاعتناء به والاعتماد عليه في تربيّتنا في البيوت والمدارس والمجتمع." [36] بينما في المقابل – و لملحظ نفسي – يزهّدنا الأستاذ في دراسة تاريخ غيرنا، فهو لا ينفعنا؛ لأنّه ترعرع في بيئة غير بيئتنا،

35 – التّاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص: 7.

36 – تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 16.

ويتّصف بصفات لا تلائمنا، وقد أوجدته ظروف وعوامل غير التي توفّرت لأجدادنا وآبائنا. وقد يتضمّن مفارقات، تؤثّر فينا سلبا، فعوض أن نستفيد من التّاريخ ما يعيننا على تكوين شخصيّتنا، وبناء نفوسنا. فإنّنا قد نتعقّد به، لأنّنا ربّما قد نخرج منه بنتيجة خطيرة هي: إنّ هؤلاء الذين نقرأ تاريخهم هم من جنس أرقى من جنسنا [37]، وإنّ لهم مواهب غير مواهبنا المتخلّفة، وبذلك نفقد الطّموح، الذي يمكّننا من اللّحاق بركب الحضارة، ونفقد الثّقة في نفوسنا، وفي إمكاناتنا.

يريد الشّيخ من خلال هذه الفكرة أن يصرف أبناء الإسلام عن دراسة تاريخ الأوروبيّين، الذي فيه مثل هذه الآراء الخاطئة والمغرضة؛ لأنّه هو ما توفّر في كتب التّاريخ، ولأنّ عقول الأبناء

37- كما هو حال أغلب مقرّراتنا ومناهجنا في مدارسنا، التي تنشئ أبناءنا على فكرة تفوّق الغرب علينا وعلى آبائنا، وتأصيل أنّ التّقدم مقصور على غير المسلمين. للشّيخ إبراهيم بيّوض مقال يعنوان : "عبرة وذكرى في الأزمة الوزارية الفرنسيّة الأخيرة"، نشره في جريدة المغرب (إبراهيم أبو اليقظان)، عدد: 30، (يوم: 23/ 12/ 1930م). بإمضاء (أفلح). ينظر كتابنا: الشّيخ بيّوض والعمل السّياسي، ص: 123 – 129. في المقال تحذير من إظهار تفوّق الغرب على المسلمين؛ بتمجيده والاستهانة بالعرب والمسلمين. ما ورد في المقال بفصّل القول في ما أشار إليه الشّيخ محمد علي دبّوز.

ساذَجة، ومداركهم قاصرة، فخاف الشّيخ أن تتأثّر بهذه الكتابات، فنخسر من التّاريخ أكثر ممّا نربح. إنّه يريد أن يتشبّع أبناؤنا بتاريخ آبائهم أوّلا، ويتأثروا به وتتمتّن العلاقة به، ثمّ بعد ذلك يسمح لهم بمعرفة تاريخ غيرهم [38]؛ لهذا قال للشّاب المسلم والنّاشئ: "أمّا تاريخ أجدادك الذين نشؤوا في أرضك، فهم أبناء بيئتك الطّبيعيّة، التي لا تتبدّل، وفي دمائك وراثتُهم، تلك الوراثة التي انحدرت إليك منهم، و هي بفضل إعْمالِهِمْ لها في جهادهم أقوى ممّا انحدر إليهم من أجدادهم، ففيك من عوامل القوّة والنّجاح أكثر ممّا فيهم، فتثق بنفسك، فتسلك طريقهم، فتصل ما وصلوا." [39]

بهذا التّفكير، وهذا العرض لحقيقة التّاريخ، يحاول محمد علي دبّوز التّركيز على الجانب الوطني في التّاريخ؛ ليؤدّي مَهمّته التَربويّة على

38- الشّيخ لا يمانع من قراءة تاريخ غيرنا ودراسته، إنّما يمنعه عن النّاشئة إلى حين تتشبّع بتاريخ آبائها؛ لتكون لها الحصانة فيما يبثّ من سموم في تاريخها، بدليل أنّه يدعو أبناء الإسلام إلى الإفادة من كلّ تاريخ عظيم:"إنّ هذه الآثار العظيمة لَتكون لنا بدراسة تاريخ كلّ أمّة عظيمة، وإن كانت أجنبيّة عنّا...". تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 15.

39- المصدر السّابق، ص: 16.

أحسن ما يرام.

ليزيد هذه الوطنيّة وضوحا وبيانا، كشف عن خطّة المستعمر في تعامله مع المسلمين مع تاريخهم: "لهذا حرّم الاستعمار اللاّتيني على المغرب أن يعرف تاريخ أجداده؛ لأنّ تأثّرنا بهم يقتضي أن نثور عليه، فندفع ما يكدّر حياتنا، ويدنّسها وينتنها إلى البحر، ونصفّي حياتنا وأوطاننا من المرارة والسّموم التي ألقاها البحر إلينا." (40)

ضرب مثلا لدور التّاريخ في غرس روح الوطنيّة في النّفوس وتنميتها، بعناية الأوروبيّين بتاريخهم، وانتفاعهم به في بثّ هذه الرّوح فقال: "إنّ الأوروبيّين قد عرفوا آثار القصص التّاريخية للعظماء في بناء الأخلاق العظيمة والتّربية الحسنة، وتهذيب الأمّة، فاعتنوا بتاريخ أجدادهم وعظمائهم، فأبرزوه في أسلوب قصصي جذّاب، يجعل النّاشئة تُغرَم به وتستغرق في قراءته، وتتنبّه كلّ التّنبّه إليه، فيتأثّرون بأجدادهم العظماء، ويحافظون في أمّتهم على تقاليدهم

40- المصدر السّابق، ص: 16. قال في موضع آخر: "إنّ التّاريخ هو الفنّ العظيم الذي حرمنا الاستعمار منه، وحرّمه علينا، فيجب أن نبادر بعد استقلال المغرب فنأخذ حظّنا منه، وننتفع به في تربيّة الأجيال القادمة". المصدر السّابق، ص: 26، 27.

الحسنة، التي هي سبب عظمتها وبقائها" (41)

مثل هذا التّوجيه، بمثل هذه الأفكار وهذه الإشارات، يساعد على تنمية روح الولاء في النّشء لوطنهم، وانفعالهم بأحداثه، وهو ما يزرع فيهم الشّعور بالمسؤوليّة في المحافظة على المكاسب، التي تحقّقت لهذا الوطن، والتّفريق بين الأغراض الوطنيّة وأهدافه والمصالح التي يبغي تحقيقَها مَنْ لا علاقة له بالوطن من المغرضين والحسّاد والحانقين. كما أنّ هذا التّوجيه والقراءة في كتب التّاريخ ومصادره يساعدان: "على المشاركة الواعية فيما يواجه المجتمع من المشكلات والتّحديات" (42)

وَعْيُ هذه الحقائق المذكورة، ومعرفةُ دور كلّ إنسان نحو وطنه، وإِفادتُه من دروس التّاريخ إِفادة حسنة، تتطلّب تعاملا عقلانيّا مع أحداث التّاريخ، يكون له تأثير في عقول النَّشء، وفي نشاطهم وسلوكهم، بما يعود على هذا الشّعور بالوطنيّة والانتماء بالنّفع، وهو من القواعد الأساسيّة التي أشار إليها الشّيخ محمد علي دبّوز.

41- المصدر السّابق، ص: 18.

42- دور القراءات الخارجيّة في تدريس التّاريخ، ص: 43، ينظر أيضا ص: 60، 61.

التّاريخ والتّربيّة العقليّة

يرى الشّيخ محمد علي دبّوز أنّ التّاريخ: "من أحسن العلوم التي تثقّف العقل".[43] لهذا واستكمالا لرسالة التّربية بالتّاريخ، وترسيخًا لحقيقته في النّفوس، وبيان جدواه، ولماذا يدرّس؛ حتىّ تنجذب إليه النّاشئة وتقترب منه، وتسترفده في توجيه حياتها. أكدّ الشّيخ على ضرورة إعمال عقل التّلميذ فيه كلّ الإِعْمالِ، وذلك بالتّدرّج معه في تقديم هذا التّاريخ إلى أن يستنبط بنفسه من المقدّمات ما تقتضيه من النّتائج، لأنّ من شأن هذا أن يقوّي انتباهه إلى ما يجب أن يتأثّر به في التّاريخ إيجابا وسلبا، وهو ما يجعل عقله أكثر حضورا حين عرض التّاريخ أمامه: "كما يجب أن تكون التّمارين التي يعقب بها كلّ باب مشتملة على أسئلة، تدعو التّلميذ إلى الاستنباط، وتعمل عقله باستخراج النّتيجة من مقدّماتها." [44]

يوضّح الشّيخ هذه الفكرة، ويبيّنُ ما يكون عليه التّلميذ حين يقدّم إليه

---

43 – أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص: 116.

44– تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 22.

التّاريخ: "فإذا سمع باستقامة دولة وتمسّكها بالدّين، ورسوخها في الصّراط المستقيم، فإنّها لابدّ أن تكون على القوّة والازدهار، وعلى النّجاح في الأمور، والتّقدم والتّفوّق في كلّ النّواحي... وإذا أرَاهُ (أي المربّي) دولةً تتنكّر لدينها، وتُعرِض عن الإسلام، وعمّا أمر به القرآن، وتحتقر الدّين وتزدريه، وتأخذ بالمذاهب الهدّامة التي وضعها أعداؤها... فإنّ عاقبتها لا شكّ هي الدّمار والاضمحلال، وما تبوء به إنّما الخسارة والهلاك و التّمزّق والتّفكّك، وما يكون لها في صدور الأحرار والأمم إنّما هو الاحتقار والازدراء."[45]

هذه النّتائجُ المترتّبةُ عن مقدّمات، الحاصلةُ من أسباب معيّنة هي ما يجب أن يترك المربّي فيها الفرصةَ للتّلميذ كي يتوصّل إليها بنفسه، بل عليه أن يثير اهتماماته، ويُشبع فضوله العقلي، ويسأله عن الأسباب المؤدّية أو الموصلة إلى تلكم النّتيجة، أو يسأله بعد وضع المقدّمات، أو تقديم معطيات عن النّتائج الممكنِ الوصولُ إليها. أو محاولة انتقاء مواقف تعليميّة من التّاريخ ودفع التّلميذ للتّفاعل معها، بذلك يكون المربّي: "قد ربّى فيه الخُلق بلفته إلى عائدة

45- المصدر نفسه.

التّمسّك بالدّين، وربّى فيه العقل بالاستنباط والاستخراج."[46]

ما يجب وضعه في الحُسبان، وإيلاؤُه عناية كبيرة في مجال إعمال العقل في التّاريخ، هو عدم البقاء أسير آراء سابقة، وأفكار خاصّة دُرِج عليها، حتىّ ولو كانت خاطئة؛ لأنّها هي التي عكّرت الصّفو على المسلمين، وأعاقتهم عن التّفاهم والتّلاقي، بل يجب إعمال العقل وتحكيم المنطق في التّاريخ ورواية الأحداث ونقل الواقعات. فمتى تبيّن لنا خطأ رأي أو معلومة، يجب تسجيل ذلك، والإعلان عنه؛ حتىّ لا ننحرف عن التّاريخ في هدفه ومغزاه، وهو التّربية العقليّة والتّنمية الإدراكيّة فينا وفي النشء: "و يجب أن لا نترك إِلْفَنَا وما ردّده أجدادنا، فاستقرّ في عقلنا الباطن، يُكَوِّنُ أحكامنا في التّاريخ، يجب أن ننظر بعقولنا، ونبحث بحثا منطقيّا خالصا، لا توجّهنا فيه العواطف الموروثة، ونعتمد في أحكامنا على الأدلّة القويّة والبراهين السّاطعة والنّصوص الصّحيحة ...[47]

هذه الفكرة أو قريب منها ذكرها الدّكتور طريف الخالدي :"إنّ

46- المصدر نفسه .

47- المصدر السّابق، ص: 24.

فائدة التّاريخ تكمن في التّمرين العقلي على استخراج الحوادث، ووضعها في نصابها القصصي والمنطقي." [48]

إنْ سُلِكَ مع التّاريخ هذا المسلك، فإنّه يكون عاملا مهمّا في توسيع أفق العقل، وتعويده على التّفكير المنطقي، وتنمية روح البحث العلمي في نفوس التّلاميذ وطلاّب المعرفة؛ بإثارة اهتمامهم، وبذل الجهد في الاستنباط والاستنتاج وربط الأسباب بالمسبّبات... لتحقيق كلّ ذلك قدّم الشّيخ محمد علي دبّوز مجموعة من الملاحظات والقواعد العامّة في كيفية تدريس مادة التّاريخ؛ ليؤتي ثماره المرجوّة منه، فما هي هذه القواعد ؟.

48- الدّكتور طريف الخالدي، بحث في مفهوم التّاريخ ومنهجه، ص: 20.

قواعد تدريس التّاريخ [49]

إنّ الشّيخ محمد علي دبّوز يؤكّد أنّ التّاريخ يجب أن لا يقتصر على السّرد والحكاية ومجرّد الاطّلاع، بل يجب أن نتّبع فيه طريقة مجدية، ونختار له نهجا قويما، ونبتكر منهاجا صحيحا؛ حين نقدّمه إلى النّاشئة بخاصّة؛ ليكون لهم عامل اجتذاب بدل أن يكون عامل نفور.

قدّم للمربّين – في هذا السّياق – مجموعة من الملاحظات والإرشادات حول فنّ تدريس التّاريخ تحت عنوان "فنّ تدريس التّاريخ."[50] هي في حقيقتها شروط، فما هي هذه الشّروط التي يشترطها في مدرّس التّاريخ ؟ هي الآتية:

- أن يلقي دروسه التّاريخيّة بتحليل علمي وروح خطابيّة، وفي أسلوب طليّ.

49- لمزيد من التّفاصيل ينظر مقالنا: "المؤرّخ الجزائري محمد عليّ دبّوز في ذكراه السّادسة"، مجلّة النّهضة (سلطنة عمان)، عدد: 363، الصّادر يوم: 09/ 12/ 1987م.

50- ينظر تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 22 وما بعدها.

- أن يتمتّع بشخصيّة قويّة، يكون لها التّأثير الكبير في النّشء؛ حين يقدّم لهم الحقائق التّاريخيّة.

- أن ينبع التّاريخ من أعماقه متأجّجا بوجدانه، متشبّعا بفلسفته، حتّى لا يقتل هذا التّاريخَ حين يقدّمه، وحتّى لا يكون أخبارا باردة، وأنباء قديمة يحكيها.[51]

- يجب أن يأتي بدروسه ومقرّراته في رأسه، لا في كرّاسه.

- يجب أن يتحمّس المدرّس المربّي للفضيلة في تاريخ العظماء ولكلّ الأشياءِ الحسنة. كما يجبُ أن يُظهرَ مقته للرّذيلة ولكلّ الأشياء السّيّئة.

- يجب أن لا يُسند تدريس التّاريخ لمن كانت شخصيّته علميّة محضة. فإنّه يقتله، ولا تجدي معلوماته الغزيرة فيه، وذاكرته المحشوّة بمادّته.

51- يرى الدّكتور جعفر سعادة أنّ مدارسنا تخطئ في طريقة تدريس التّاريخ، و هو ما يأتي بنقيض المقصود من التّاريخ لأنّها تعتمد على "السّرد الجافّ للحوادث، والشّيء البارز فيه هو ذكر السّنين وأسماء الملوك والوقائع الحربيّة"، ينظر دور القراءات الخارجيّة في تدريس التّاريخ، ص: 20.

- يجب أن لا يسند تدريس التّاريخ إلاّ للفصحاء الذين وهبهم الله اقتدارا في التّعبير، وكانت الشّخصيّة الخطابيّة فيهم قويّة.

رغم وجاهة هذه الآراء في تدريس التّاريخ، إلاّ أنّنا نحترز من ملاحظة واحدة، وهي التي يقرّر فيها الشّيخ أنّ التّاريخ يقدّم إلى النّشء بروح خطابيّة. نخشى أن يسرف المربّي أو المدرّس في هذه الخطابيّة [52]، فيهمل دور المتلقّي أو التّلميذ في درس التّاريخ، فيكون الجهد مبذولا من جهة واحدة، وهي جهة المعلّم، بينما طرف التّلميذ يبقى سلبيّا، يغرق في الاستماع، وينشأ على السّلبية في النّشاط، وعلى التّسليم بما يقدّم له، فيتعطّل عقله أو تفكيره، الذي يحرص الشّيخ ويوصي باستثارته؛ بما قرّره من نظريّات في مفهومه للتّاريخ ودوره التّربوي، بينما: "الطّريقة الجيّدة في تدريس التّاريخ تعتمد على إثارة التّلاميذ، وتحفيزهم على العمل، وبذل الجهد، وتقوم على النّشاط الإيجابي من التّلاميذ، والتّوجيه والقيادة والإشراف من المدرّس،

52- هي الطّريقة التي كان يدرّسنا بها التّاريخ في معهد الحياة، كان يقدّم لنا دروسه على شكل محاضرات. ليس لنا في دروسه أيّ جهد يذكر، نبذله لنعمل عقولنا فيها، وفي التّاريخ المقدّم لنا.

وتسمح بالتّعاون والعمل الجماعي على أسس ديموقراطيّة، ولا تهمل في نفس الوقت العمل الفردي الاستقلالي، وتشجّع التّفكير المستقلّ والحكم المستقلّ من التّلاميذ."[53]

هذه بعض القواعد العامّة في طريقة تدريس التّاريخ، قدّمها أستاذنا للمربّين، تنفعهم في أداء رسالتهم التّربويّة. فهي تكشف عن تجربة كبيرة في الميدان، وتفهّم عميق لعمل المربّي الذي يتوخّى السّبل القويمة والطّرق النّاجحة في التّربية. لهذا يرى الشّيخ أنّ التّاريخ أكبر وسيلة في التّربية، ويفضّله على دروس الأخلاق النّظريّة.

53- دور القراءات الخارجيّة في تدريس التّاريخ، ص: 68، 69. ينظر أيضا عبد الحميد السيّد، التّاريخ في التّعليم الثّانوي، ص: 192.

التّاريخ ودروس الوعظ والإرشاد

لخطر التّاريخ وأهميّته في مجال التّربيّة فإنّ الأستاذ محمد علي دبّوز يراه أجدى من دروس الوعظ والإرشاد النّظريّة؛ لأنّ التّاريخ يجسّم الفضيلة في سلوك الصّالحين، ويقدّمها مصحوبة بعاقبتها الحسنة، ومقرونة بجدواها العظيمة؛ فيكون المرء أكثر إدراكا لها وأحسن تصوّرا، فيتملّكه الإعجاب بها، فلا يسعه بعد ذلك إلاّ الإيمان بها: "فالصّلاح نراه مقرونا بالنّجاح الذي حصّلوا عليه، والأخلاق العظيمة في العظماء نراها مصحوبة بالزّعامة والعبقرية والمجد الذي تُوُّجوا به. فنرى الفضيلة فيهم في هالة مشرقة من عاقبتها الحسنة، ونحسّ بها في حلاوة عائداتها الجميلة، فيكون إيماننا بها أشدّ، ورغبتنا فيها أقوى؛ فتثور غريزة السّيطرة وكثير من الغرائز فتبعثنا عليها، فنتّصف بها."[54]

كما يجسّم التّاريخ الرّذيلة في سلوك المذنبين مقرونة بعاقبتها الوخيمة:"فنراها في بؤس المذنبين وفي مشنقة المجرمين، وفي جحيم الله الذي أعدّه للعاصين؛ فتبدو لنا في أبشع صورها، وفي هولها

54- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 20.

للنّفوس من الأدران، وتطهيرها تطهيرا كاملا: "فتكون صافية بيضاء ناصعة، كالثّوب الأبيض الذي غسلناه فأجرينا عليه المكواة الحامية، فأرجعت له جدّته، وأزالت تجاعيده، ومنعته من التّسوّس والبلى."

ما نأخذه عليه أيضا – ونستنتجه من تعبيره – سلْبَه المواعظَ النّظريّة المنفعةَ والجدوى والتّأثير في النّفوس، إلّا ما كان آنِيا وقتيًّا؛ إذ سرعان ما ينسى المخاطَب بدرس نظري الأخلاق التي لُقِّنَها: "فإنّ المرء لا يزيد بها على أن يلين قلبه بعض اللّين، وتدمع عينه بعض الدّمع، ثمّ يقسو قلبه وترقأ دمعته، وينسى ما سمعه من المعاني."

هذه المبالغة في تقرير هذه الفكرة منشؤها – في نظري – اقتناع الشّيخ بجدوى التّاريخ وبدوره الفعّال في التّربيّة والتّوجيه، وحرصه على تأصيل هذه الفكرة في النّفوس؛ لِمَا لاحظه من عدم اكتراث النّاس بالتّاريخ، ومعاينته الأخطاء التي ارتكبت في حقّ التّربيّة؛ بسبب الإعراض عن التّاريخ، ثمّ وقوفه على صنيع الاستعمار في تشويه الشّخصيّة الإسلاميّة، وانحرافه بالمجتمع الإسلامي في سلوكه؛ بتزييف التّاريخ، وكذا مشاهدته لمجتمعه يتخبّط ويتعثّر في وحل من الأخلاق الفاسدة والسّلوك

المشين؛ بسبب عدم الإفادة من التّاريخ، والاطّلاع على مآثر الأجداد ومثالبهم، وأخذ العبرة منها، وكذا ما لاحظه من نقص وضعف – أحيانا – في أساليب تقديم دروس الوعظ والأخلاق النّظريّة.

كلّ ذلك أثّر عليه – سلبا – في التّنظير؛ فحمله على دَعْمِ فكرة آمن بها، والتّأكيدِ على نظريّة تبنّاها، على حساب أفكار أخرى. هذا خطأ في التّنظير والتّقدير، كثيرا ما عيب على الشّيخ. كما لاحظ ذلك الشّيخ علي يحي معمّر في بعض انتقاداته للشّيخ محمد علي دبّوز. [58]

مع ذلك فنحن لا ننكر دور التّاريخ في التّوجيه والإرشاد والتّوعية، وفي نشر الأخلاق وتفتيق العقل، وتنمية الخيال وتهذيبه إلى جانب

58– عاب الشّيخ علي يحي معمّر على الشّيخ محمد علي دبّوز مبالغاته، التي تحجب بعض الحقائق – أحيانا – وتوقعه في تناقض؛ لسبب واحد هو محاولته وحرصه على إظهار أهمّيّة الفكرة التي يؤمن بها، وتقديم صورة عمّا يعجب به، أو ينكره، فيتغافل عن الحقائق الأخرى أو يتناساها. وهو ما يصم بعض آرائه بعدم الوضوح أحيانا. ينظر مبحث "لا يا أخي" علي يحي معمّر، الإباضية في موكب التّاريخ، الحلقة الرّابعة (الإباضيّة في الجزائر)، الطّبعة الأولى، مكتبة وهبة. القاهرة سنة 1979، ص: 461 وما بعدها .

البحث التّاريخي المحض.[59]

هذه بعض الآراء والنّظرات، التي قدّمها الشّيخ محمد علي دبّوز عن التّاريخ وسيلةً تربويّة للتّوجيه والتّكوين، هي في حاجة إلى وقفات وتأمّل ومناقشة معمقّة؛ لأنّها تحمل دلالات مهمّة. وهي وجهات نظر شخصيّة أملتها – أغلبها – ظروف خاصّة، وأفرزتها بيئة متميّزة، وكوّنتها عوامل ذات طابع خاصّ. على المؤرخ مناقشتها، وعلى المربّي نقدها وإغناؤها.

إلى جانب الدّور الكبير الذي يعطيه الشّيخ للتّاريخ في التّربية، فإنّه يُوكِلُ إليه دورًا آخر، وهو جبر النّقص أو التّعويض في مجال التّربية؛ كالاستعاضة عن البيئة الاجتماعيّة الواقعيّة، التي قد تفتقر إلى عوامل التربيّة الحسنة، أو إلى مقوّماتها، وإلى التّوجيه المثمر...الاستعاضة بالبيئة التّاريخيّة، التي يمكن بواسطتها توفير الجوّ الملائم لحسن الرّعاية والتّوجيه.

هذا الجانب يقوم فيه العامل النّفسي بدور كبير، وهو المجال الذي أولاه الشّيخ عناية كبيرة لتوضيح آرائه، وبيان نظراته، والكشف عن الجانب التّربوي في التّاريخ، وهو ما نعرض له في المبحث الآتِي.

59– ينظر ما يؤيّد هذا الرّأي "ج. هرنشو" وكتابه علم التّاريخ، ص: 105، 106.

التّاريخ والجانب النّفسي

حين نتأمّل في بعض الأوصاف التي سجّلها الشّيخ محمد علي دبّوز للتّاريخ، ونمعن النّظر في تعامله معه؛ تنظيرا وتطبيقا، نلحظ أنّه كان كثير التّركيز على الجانب النّفسي في هذه الوسيلة التّربويّة.

من خلال تعريفنا بهذا التّاريخ، وتقديم صورة عن هذه الوسيلة، وإقناعنا بجدواها في العمليّة التّربويّة... يحاول أن يتغلغل معنا في أعماق النّفس البشريّة، ويسبر غورها، ويَقِفَنَا على بعض الحقائق النّفسيّة فيها، وعلى بعض الإشارات، التي يجب مراعاتها؛ للسّير سيرا حسنا في التّربيّة، سواء في استغلال هذه المؤهّلات في التّوجيه أم تعديل بعض المعطيات فيها؛ لتستقيم العمليّة...كلّ هذا هو ما يقوم به التّاريخ أو يَضْمَنُهُ.

ربّما كان لاطّلاعه على نظريّات في علم النّفس التّربوي، وتشبّعه ببعض المفهومات النّفسيّة، ووقوفه على بعض الأنماط السّلوكيّة، وتحسّسه لهموم المجتمع التي تسبّبت فيها عوامل القهر والضّيم والتّخلّف والجهل، التي تعرّض لها، والإحباطات النّفسيّة التي نالته

من الظّلمة والجبابرة والمستعمرين، والتي مسّته في مقوّماته وكيانه وأصالته؛ بسبب تزييف تاريخه، أو منعه من إرثه العزيز. لعلّ لكلّ ذلك أثرًا في جعله ينحو هذا المنحى في التّعامل مع التّاريخ، ويهتمّ بالجانب النّفسي أكثر من سواه، ويفسّر التّاريخ انطلاقا من هذا المجال، وعروجًا إليه من هذه الزّاوية.

يركّز الشّيخ محمد علي دبّوز على جانب مهمّ في حياة الإنسان، هو جانب الغرائز التي تتركّب منها النّفس، والتي تُسيِّرُ حياته وتوجّهها. يقول:"إنّ هذه الغرائز والميول الفطريّة العامّة هي أساس أخلاقنا، وسبب ما فينا من عقائد، تشكّل سلوكنا، وترسم طريقنا في الحياة."[60]

نظرا لكون هذه الغرائز هي التي تكوِّن البيئة الاجتماعيّة، التي يترعرع فيها المرء، بتأثير من يحيطون به ويختلط بهم، ومن يعاشرهم. ولكون المربّين يستطيعون بواسطتها التّأثير في الأبناء وتشكيلهم كما يشاؤون، فإنّها (أي الغرائز) في حاجة إلى من ينمّيها ويقوّمها، ويوجِّهها الوجهة الحسنة.

60- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 13.

يرى الشّيخ في البيئة التّاريخيّة، وسِيَرِ من سبق من الآباء والأجداد مجالا لذلك. يضرب مثلا بغريزة حبّ الظّهور التي تحقّق إنسانيّة الفرد. وهو الكائن الذي يسعى إلى إثبات وجوده، وفرض نفسه على الآخرين: "ومن تلك الغرائز غريزة حبّ الظّهور، التي تجعله يريد الاحترام من بيئته، والتّقدير والإكبار ممّن يختلط به، وهذا لا يكون إلاّ بالسّلوك الحميد الذي يكبره من يعاشره، والأخلاق الحسنة التي يحبّها من يختلط به؛ فتبعثه تلك الغرائز عليها. إنّها أقوى غريزة في الإنسان، فتسعة أعشار أعمالنا الحسنة تدفعنا إليها هذه الغريزة؛ لذلك يجب أن نحفّ الطّفل بالبيئة الاجتماعيّة التي تحترم الأخلاق الحسنة؛ لتبعثه هذه الغريزة عليها." [61]

حتّى يربط الشّيخ بين هذه الغريزة والتّاريخ، وما يمكن أن يقدّمه هذا الأخير للأجيال في مجال التّربيّة بتوجيه هذه الغريزة نحو الأحسن، ركّز على ضرورة العودة إلى تاريخ الأجداد والأسلاف؛ لتوطيد العلاقة بهم، والإفادة من سير الغابرين. فمن هذه السِّيَر يستمدّ الخلف قوّتهم وحقيقة

61- المصدر السّابق، ص: 14.

وجودهم، ويثبتون تلك الجدارة وحبّ الظّهور، التي قد يزهّدهم فيها، أو ينفيها عنهم بعض المغرضين والطّاعنين.

إذن بفضل هذه الغريزة يعطى الأبناء الثّقة في أنفسهم، فيعملون على المحافظة على وجودهم؛ بما يضيفونه إلى هذا المجد بالتّربيّة والتّوجيه:"إنّ غريزة حبّ الظهور ممّا يبعث الإنسان على الشّغف بتاريخ أجداده، وعلى التّنبه فيه، فيزداد تأثّره به، لأنّ أجداده جزء منه، فمجدهم هو مجده، وأنّ هذه الغريزة لتجد شبعها بمشاهدة هؤلاء الأجداد في عروشهم والتّحديق فيهم، وهم في حلل مجدهم، وإنّه لتدفع الابن ليكون مثل جدّه، فيبحث بدون شعور عن الطّريق الذي سلكوا، والأسباب التي أخذوا بها، فحقّقوا تلك الغايات، فتدفعه لسلوك ذلك الطّريق، والأخذ بتلك الأسباب؛ فيتّصف بأخلاق أجداده؛ فيكون عظيما مثلهم ومن الأسود الكاسرة..." [62]

ظاهر من هذه النّظرة، وهذا التّحليل أنّ الشّيخ ينطلق من الواقع المعيش الذي تمرّ به الأمّة الإسلاميّة المقهورة والمغلوبة على أمرها في

62- المصدر السّابق، ص: 15.

حقيقة إنّيتها وهويّتها وأصالتها، التي عمل الاستعمار (والظّلم) على قهرها وتزييفها، وجاهد على هزم أبنائها نفسيًّا؛ بتصويره وإيهامهم بأن لا تاريخ لهم، ولا أصالة إلاّ ما يهيِّئُه لهم هو بنفسه، و ما يمليه عليهم.

في هذا التّحليل، وفي هذا الملاحظة عامل نفسي يعمل على تنبيه النّاس إلى هذه الحقيقة، وإلى توضيح الرُّؤية لهم، وإلى التّركيز على جانب أساسي في البشر، وهو إشعارهم بحقِّهم في فرض الوجود، وبعث الثِّقة في النَّفس. هذا العامل يتحرّك في الإنسان وينمو ويتطوّر بفعل الشّغف بتاريخ الأجداد و القراءة المتأنيّة في مجدهم وثراتهم.

هكذا يعمل التّاريخ عمله في تنمية غريزة حبّ الظّهور، فيحاول الابن الارتفاع إلى سمعة أبيه، والارتقاء إلى مستواه، وتسنّم مجد سلفه، فيردّ أسطورة التفوّق الأجنبي عليه، ويدافع عن وجوده، ويدفع ضيم العدوّ والجاني عنه: "فلا تستطيع ثعالب الاستعمار أن ترتع في عرينه، وتستأسد في غابه". لكلّ ذلك يضيف الشّيخ محمد علي دبّوز: "حرّم علينا الاستعمار دراسة دولنا الإسلاميّة ومعاشرة أبطالنا، والاختلاط بأجدادنا، وهم في ذروة عزّهم، وفي عروش مجدهم، تعنو لهم رقاب

الدّنيا إجلالا وتعظيما، ويرضى عنهم الله؛ بِأخذهم بكلّ ما أمرهم به من أسباب الصّلاح والفلاح والفوز والنّجاح."[63]

بفضل غريزة حبّ الظّهور الموجّهة توجيها سليما يمكن إرجاع الثّقة في النّفس، وتصحيح كثير من الأخطاء التّاريخيّة التي تنزل –دوما– قاسية على النّفس، فتحدث فيها انهيارا نفسيّا، فلا تقوى على المحافظة على مقوّماتها، وعلى مميّزاتها، فتستسلم للقوّة الخارجيّة، التي تسيّرها كيف تشاء. وبفضل هذه الغريزة: "يستطيع الفرد عن طريق دراسة التّاريخ أن ينفذ إلى أسرار شخصيّته المحجوبة عنه."[64]

إذا كان التّاريخ كفيلاً بتحقيق هذا الجانب النّفسي فكيف عالج الشّيخ هذه النّاحية ؟ وكيف تتكوَّن الثّقة في النّفس بالتّاريخ ؟

63– المصدر نفسه.

64– علم التّاريخ، ص: 106.

التّاريخ والثّقة بالنّفس

إذا كان الاستعمار أو العدوّ يحاول زرع روح الخوف والضّعف في القلوب، ويبذر بذور الوهن وعدم الثّقة بالذات في النّفوس، ويعمل على التّشكيك في الإنيّة، ويبذل جهده في قطع الصِّلة بالماضي، فإنّ التّاريخ يحاول بأسلوب نفسيّ وتربويّ متميّز القضاءَ على هذه السّلبيات، وقطعَ دابر هذه المحاولات، وبعث الحسّ الوطني والروح الانتمائيّة إلى الأصالة في النّفوس؛ وذلك ببثّ الثّقة بالنّفس في الأبناء، والاستئناس إلى الإمكانات الكبيرة المتوفّرة، والكشف عن كوامن القوّة عن طريق الاعتناء بتاريخ الأجداد بخاصّة؛ للوقوف على الحقائق الثّابتة، والاطمئنان إلى القدرة على الوصول إلى ما وصل إليه الآباء، لأنّ الظّروف واحدة، والعوامل متشابهة - تقريبا- وكذا البيئة. يقول الشّيخ محمد علي دبّوز داعيًا إلى الاهتمام بتاريخ الأجداد، وعدم الاستماع إلى من يدعو إلى الاغترار بتاريخ الأجناس الأخرى، التي لا تنسجم مع البيئة التي ينتمون إليها، مبيّنًا الرّوابط التي تربطهم بأجدادهم.

من شأن هذا الاطّلاع وهذا الاهتمام أن يبعث فيهم الثّقة بأنفسهم: "أمّا تاريخ أجدادك الذين نشؤوا في أرضك، فهم أبناء بيئتك الطّبيعيّة التي لا تتبدّل، وفي دمائك وراثتُهم، تلك الوراثةُ التي انحدرت إليك منهم، وهي بفضل إعمالهم لها فيجهادهم أقوى ممّا انحدر إليهم من أجدادهم. ففيك من عوامل القوّة والنّجاح أكثر ممّا فيهم؛ فتثق بنفسك، فتسلك طريقهم، فتصل ما وصلوا."[65]

على ضوء العوامل التي ذكرها الشّيخ، التي تساعد على استرجاع الثّقة في النّفس يمكن فهم الحاضر ووعي سلوك الفرد فيه، وتفهّم المشاكل التي تعترضه، التي قد تكون من أسباب عرقلة نشاطه، والوقوف أمام طموحه، ومن أسباب انهزامه نفسيًّا. في هذا المعنى يقول الدّكتور جعفر سعادة :"فالغرض من التّاريخ هو تذكّر الماضي الذي هو السّبيل لتكوين الثّقة بالنّفس، وبالإمكانات والشّعور بأنّ فهم الماضي ضروريّ لإدراك الحاضر، وأنّ تكوين الوعي التّاريخي ضروريّ إذا أردنا فهم مشاكلنا الحاضرة والتّخطيط لمستقبل

65- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 16.

أفضل."[66] فالثّقة بالنّفس تحمل الإنسان على تحقيق طموحه بالعمل الإيجابي، كما أنّها تستدعي مهمّة أخرى وهي العمل على إزالة العقد النّفسيّة التي ترسّبت في النّفوس بفعل عوامل كثيرة، وهو ما نبّه إليه الشّيخ في حديثه عن التّاريخ.

66- دور القراءات الخارجيّة في تدريس التّاريخ، ص: 20.

التّاريخ وإزالة العقد النّفسيّة

ما يحقّق الثّقة بالنّفس إزالةُ العقد النّفسيّة الموروثة والرّاسخة في النّفوس؛ التي يفرزها ما يرتكبه العدوّ الحاقد على الإسلام من جنايات في حقّ المسلمين، وذلك بتشويه تاريخهم، أو التّشكيك في مصداقيته وأصالته.

من هذه العقد التي تمكّنت في نفوس أبناء الإسلام اقتناع بعضهم بقوّة العدوّ وتفوّقه؛ بسبب القهر والتّسلّط اللّذين يمارسهما عليهم. لهذا كان الشيخ يركّز كثيرا على عبارات القهر والضيم والحرمان...أسبابًا لهذه العقد النّفسيّة.

منها أيضا: عدّ الإسلام بعيدا أن يكون دين المدنيّة، بل وصفه سبب الخمول والهوان. وأنّ اللّغة العربيّة لغة متخلّفة:"هذه العقائد الخطيرة التي هي الدّيناميت الفتّاك، الذي يهدم مغربنا، والسمّ القتّال الذي يفتك بنا، وهي شرّ من وجود المستعمرين كلّهم في بلادنا."[67]

هذه العقد النّفسيّة التي تكوّنت في أبناء الإسلام، يكون أثرها على

67- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّالث، ص: 10.

الأمّة خطيرا؛ لأنّها أصبحت عقائد ومسلّمات يؤمن بها هؤلاء النّشء – لأسباب وعوامل- هي أخطر من الاستعمار نفسه، لأنّه كما يقول الشّيخ محمد علي دبّوز: " أمّا أبناؤنا الذين يلابسوننا ويختلطون بدهمائنا وأغرارنا، ونحسن الظنّ بهم، وتنفتح لهم صدورنا، فإنّهم يَسْكُبون في مغربنا هذه العقائد القتّالة، ويغمروننا بعدواهم المميتة." [68]

من بين هذه العقد أيضا تقريرُ أنّ أيام المغرب العربي في عهود الدّول الإسلاميّة كانت تسبح في دماء من الصّراع والتّناحر، وكان المغرب يرزح تحت نير التّخلّف والفقر، وكان يعيش حالة الهوان والذِّلَّةِ...

لماذا يلقِّن المستعمرون هذه العقائد لأبناء المغرب الإسلامي؟:"ليهيِّئوا نفوسهم للرّضوخ للقيود، واستحلاء المرارة، فلا يثورون عليه، والرّضا بواقعهم الأليم فلا يسخطون عليه."[69] وقد حدث في تاريخ الجزائر مثلا، وبسبب سياسة استعماريّة حقودة

68- المصدر نفسه.

69- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 8.

خبيثة، أنْ تَنَكّر بعض الجزائريّين لوطنهم. وقد أثَّرت فيهم الدِّعايات، وأقنعتهم بأنّه لم يكن للجزائر كيان متميّز، ولا شخصيّة متميّزة، إلاّ ما كوّنته لها فرنسا لمّا دخلت إليها واحتلّتها سنة 1830م. حتى قال أحدهم: "لن أموت في سبيل الوطن الجزائري لأنّ هذا الوطن ليس له وجود" (70)

وقد ظهرت في الشِّعر الجزائري التفاتات إلى التّاريخ لمقاومة هذا التّيّار الخطير، وهي كما عبّر عنها الدّكتور صالح الخرفي "الوعي التّاريخي". حيث لاحظ في الشّعر، وبخاصّة الإصلاحي منه والوطني ظواهر التفجّع والحسرة على الماضي الغابر، ومناهضة المواقف السّلبيّة من الشّخصيّة الوطنيّة، ثم المواجهة الصّارخة، ومقاومة ادّعاءات نكران الوطن الجزائري، ثمّ الاعتناء والاهتمام باللّفتات التّاريخيّة، والتّركيز على قضيّة الانتماء العربي، والإشادة

70-د. صالح الخرفي، الشّعر الجزائري، ص: 96، 97. نقلاً عن جريدة (L`ENTENTE ) (التّفاهم)، الصّادرة يوم: 23-02-1936. (Je ne mourrai pas pour la patrie Algerienne parce que cette patrie n`existe pas) POESIE ALGERIENNE. ALBER MEMMI. MOUTON. PARIS . 1963.

بالحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ ردًّا على أسطورة (الجزائر فرنسيّة **L`Agerie Francaise**) ... إلى غير ذلك من المواقف التي أملتها عوامل المساس بالشّخصيّة الإسلاميّة، وهذه العقد النّفسيّة التي كوّنها في النّشء الإسلامي الظّلم والاستبداد.[71] قال رمضان حمّود، مُنَبِّهًا إلى خطر التّاريخ وحساسيته: "التّاريخ محيي الأمم و قد يكون قاتلَها إذا شربته من كأس غيرها." [72]

لكلّ هذه المعطيات والحقائق المرّة التي عشّشت في البيئة الإسلاميّة، واستحكمت في نفوس أبناء الإسلام، غير المحصّنين بتاريخ أجدادهم الحقيقي. لكلّ ذلك يرى الشّيخ محمد علي دبّوز أنّ التّاريخ الصّحيح الخالي من التّزييف والتّحريف والتّضليل كفيل بإزالة العقد النّفسيّة، التي تكوّنت في نفوس الأبناء نحو تاريخهم وإمكاناتهم النّفسيّة والعقليّة.

71- يراجع صالح الخرفي، الشّعر الجزائري، ص: 95 وما بعدها ومولود قاسم نايت بلقاسم، كتابه شخصيّة الجزائر الدّولية وهيبتها العالميّة قبل سنة 1830م، الجزء الأوّل والثّاني، الطّبعة الأولى، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1405ه/ 1985م.

72- د. محمد ناصر، رمضان حمّود ... ص: 258.

قال الشّيخ معلّقا على ما قام به المستعمرون والظّلمة؛ لمحاولة التّأثير في نفوس النّاشئة الإسلاميّة، وما كانوا يهدفون الوصول إليه:"... ليخلقوا في نفوس أبنائنا عقائد سيّئة في أجدادهم، وعقدا نفسيّة، تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم، فلا يرون ما كان يرفل فيه المغرب في عهود دوله الإسلاميّة الزّاهرة من سعادة وهناء، ومن رقيّ وتقدّم، ومن عِزٍّ وسيادة، ومن ازدهار في كلّ النّواحي وتفوّق في كلّ الاتّجاهات."[73]

لهذه الحالة المأسويّة التي يسعى الدّخيل والمغرض، والمناهض للمسلمين إضفاءَها على حياة النّشءِ، والتّضييق عليهم، يلجأ الشّيخ إلى التّاريخ لمسح آثار هذه المؤامرات من نفوس النّابتة بخاصة: "ونُبيدُ من نفوسهم بالتّاريخ الصّحيح العقد النّفسيّة الموروثة، التي بثّها الاستعمار في نفوسنا ليمزّق شملنا."[74]

حذّر الشّيخ كثيرا من تصرّفات بعض أبناء الإسلام – وأبناء

73- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 8، 9.

74- المصدر السّابق، ص: 21.

المغرب الإسلامي بخاصّة - في زرع بعض العقائد الفاسدة في نفوسهم نحو تاريخهم وتاريخ آبائهم، وقد عدّها الدِّيناميت القتّال الذي يهدم مغربنا؛ ولهذا قال: "إنّ التّاريخ المغربي الإسلامي هو الذي يشفى هؤلاء الأبناء."[75]

ممّا يلحظه المتأمّل في نظرة الشّيخ إلى المسلك الحسن في إبادة العقد النّفسيّة، تركيزه على فكرة "التّاريخ الصّحيح". هذه العبارة ذات أبعاد نفسيّة مهمّة، وذات دلالات فكريّة عميقة، وذات مفهومات دقيقة. يمكن للمرء أن يقف عندها، وعند مراميها من خلال ما يفقه من كيفية تعامل الشّيخ مع شخصيّاته، والأحداث التّاريخيّة، ومن خلال ما يعي من آرائِه الخاصّة، التي لها علاقة بالتّاريخ، التي كان يدعم بها نظراتِه ومفهوماته لمحتوى التّاريخ، ودوره وجدواه، كعلم

75- يراجع تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّالث، ص: 9، 10. كما يجب الحذر ممّا بثّه بعض السُّذّج وبعض المحسوبين على الإسلام من سموم، و ما نقله بعض النّقلة غير الأمناء أو غير المؤهّلين عبر الأزمنة والحقب التّاريخية، ممّا يخرج عن التّاريخ الصّحيح الذي دعا إليه الشّيخ، و هو ما سبّب تصدّعا في صفوف المسلمين. وأورث ضغائن وإِحَنًا، تضخّمت بمرور الزّمن. فليُعَد النّظر في هذه الكتابات برؤية إسلاميّة.

النّفس والتّربية وعلم الاجتماع والبيئة...

في كتاباته نجد ما يشير إلى هذا التّاريخ الصّحيح، كالابتعاد عن آراء المستشرقين، أو على الأقلّ الحذر والحيطة ممّا يقولون، وتمحيص ما ينطقون به وينقلون قبل تثبيته فيما نكتب، وما نقرّره للأبناء، كما حذّر:"من كتب التّاريخ الإسلامي القديمة، فإنّها مملوءة بأكاذيب الملوك ودعاياتهم الباطلة."[76] يضيف الشّيخ قائلا: "يجب أن ننظر بعقولنا، ونبحث بحثا منطقيّا خالصا، لا توجِّهنا فيه العواطف الموروثة، ونعتمد في أحكامنا على الأدلّة القويّة والبراهين السّاطعة والنّصوص الصّحيحة." [77]

إذن في سبيل كتابة التّاريخ الصّحيح، الذي يساعد على إزالة العقد النّفسيّة، والعقائد الفاسدة من نفوس الأبناء بالطّرق السّليمة، يجب أن لا تستبدّ بنا العاطفة في أثناء البحث عن الحكم، والتأمّل في الأحداث والسّير والواقعات؛ حتى نتمكّن من الوصول إلى الحقيقة،

76- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 24. عن تعليق الشّيخ على هجوم الملوك القدماء على المغرب وأسباب ذلك ونتائجه، ينظر المصدر السّابق، ص: 33 و ما بعدها.

77- المصدر السّابق، ص: 24.

وكتابة تاريخ صحيح. لكنّ هذه العاطفة والحماسة يجب أن يتوفّرا للحكم، أي بعد الوصول إليه.[78] "إنّ العاطفة والحماس يجب أن لا يلابسنا في الحكم، لا للحكم، ويجب أن نخلو منهما أثناء البحث والتأمّل، لا بعد الحكم الذي نؤمن به والنّتيجة التي نتيقّنها." [79]

إنّ هذه الملاحظات مهمّة لإدراك حقيقة التّاريخ، وتقديمه بطريقه تحقّق الغرض منه، ومن روايته وقراءته. يضيف الشّيخ محمد عليّ دبّوز ملاحظة أخرى، لها وجاهتها، وهي في الوقت نفسه مجال للنّقاش والتّأمّل، وهو ما نعرضه فيما يأتي:

78- أشار الشّيخ محمد علي دبّوز إلى ذلك في حديثه عن الحماسة للفضيلة، وإظهار المقت والكره للرّذيلة.

79- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 24. هل تمكّن الشّيخ من تطبيق هذا المعيار في كتاباته تطبيقا كاملا؟

التّاريخ والإدراك الحسّي له

في الإفاضة في الحديث عن دور التّاريخ في التّربية، وأهميّته في توجيه الحياة العامّة، يلحّ الأستاذ محمد علي دبّوز على الجانب الحسّي في الإدراك والوعي والفهم؛ الذي يجسّم ويجسّد المعاني ويقدّمها بشكل محسوس، بعيدا عن التّجريد، انطلاقا من أنّ الإدراك الحسِّي في الإنسان أقوى من الإدراكِ المعنوي [80]. لذا يدعو إلى استغلال هذا الجانب في التّاريخ من النّاحية النّفسيّة؛ لبلوغ الأهداف المسطّرة في التّربية والتّوجيه: "والتّاريخ هو الذي يرسم في خيالنا ذلك المحسوس الواقع، فلذلك كانت آثاره أبلغ وأرسخ من آثار الوعظ والإرشاد النّظري، الذي لا

80- قضيّة الإحساس والإدراك وماهيتهما والعلاقة بينهما، لا نناقشها هنا لأنها بحث نفسي وفلسفي، يُعْنَى به علم النّفس والفلسفة، وآراء العلماء والدّارسين فيها مختلفة، وبخاصة بين المدرسة السّيكولوجيّة التّقليدية ومدرسة علم النّفس الحديثة، ونحن نتساءل: هل استعمال الشّيخ لهذه العبارة "الإدراك الحسّي" استعمال صحيح؟ أيمكن أن نقول الإدراك الحسّي ؟ أم الحسّ الإدراكي ؟ هل لا يجوز هذا ولا ذاك؟ يراجع لمزيد من التّوضيح جمال الدّين بوقلي حسن، قضايا فلسفيّة، ص: 291 و ما بعدها.

يقترن بالقصص التّاريخية وبالحكايات التي تجسّم معانيه."[81]

نلحظ في مقولة الشّيخ ملاحظة، جديرٌ بنا أن نقف عندها ونتأمّلها – وهو يتدرّج معنا في الإدراك والوعي وتحقيق الغاية في التّربية- إنّها فكرة اللّجوء إلى الخيال؛ عاملاً نفسيًّا في التّربيّة والتّوجيه. هذا الخيال الذي يعظّم لنا الفضائل في نفوسنا، ويضخّم لنا مظاهر النّجاح والتّفوق في هؤلاء النّاس الذين نقرأ حياتهم، ونتأمّل في مسيراتهم. وفي هؤلاء الأشخاص الذين يُعرَضون علينا لِلاقتداء والاتّعاظ بهم؛ حتى نطمح في الوصول إلى ما وصلوا إليه، ونرغب ونعمل بكلّ جدّية وإخلاص لِتسنّم ذروة المجد مثلهم. هذا الخيال الذي يبالغ في تصوير الأحداث التي تقدّم إلينا؛ للإفادة منها واستثارها في مستقبل أيّامنا... إنّ هذا ما يرجى من التّربيّة.

قد تقصر المشاهدة العينيّة البصريّة عن تحقيق ما يطلب تربويّا من التّاريخ؛ لأنّ الإدراك الحسّي، حتىّ ولو كان مهمًّا في مجال التّربيّة، إلاّ أنّ هناك عنصرا أو درجة أرقى وأجدى – أحيانا- في هذا المجال، هو

81- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 20.

الخيال الذي يهوّل من المسائل لأجل بلوغ الأهداف المرسومة: "ولعلّ التّاريخ الذي يرسم في خيالنا عظماءَه ومختلف شخصيّاته، يجعلنا أكثر تأثّرا ممّا لو شاهدنا أولئك بعيوننا، لأنّ الخيال قد يزيد في الصّورة فتكون أكثر ممّا هي في الواقع، ويُضفِي عليها من تهاويله، ما يجعلها أحسن ممّا هي في الحقيقة. والتّاريخ يقدّم إليك الشّيء مشروحا ظاهرَ الأسرار، بَيِّنَ الخفايا، فتدرك كلّ حقيقته، فيكون تأثّرك بالغًا على حسب الإدراك، أمّا الحوّاس فقد لا تطلعك إلاّ على الظّواهر، فترى الرّجل العظيم، فلا تعرف إلاّ بعض مزاياه أو لا تعرف عنه شيئا، فتظنّه من عَرَض النّاس، وهو زعيم قومه، وعبقريّ فذّ في أمّته."[82]

قد يبدو الشّيخ محمد علي دبّوز في تقرير هذه الفكرة متناقضا مع نفسه.فمن جهة يثبت للإحساس دورا مُهمًّا في الإدراك، ومن جهة أخرى ينفيه عنه، وينسبه للخيال، الذي يعمل على التّهويل والتّضخيم. أَيمكن لنا أن نقرّر ذلك، أم نقول: إنّ الشّيخ يريد أن

82- المصدر نفسه .حتى ينجح المربّي في مهمّته بالتّاريخ يجب أن يتمتّع هو بخيال المؤرّخ الذي يعطيه" القدرة على تصوّر الماضي وكأنّه حاضر "ينظر بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه، ص: 74.

يتدرّج معنا في مراتب الإدراك لدى النّشء بخاصّة، من الإحساس إلى الخيال الذي يفتح باب التّصوّر؛ بقدر ما يملك الشّخص من قوّة التّخييل، وبقدر ما يتمتّع به من درجات الوعي بحقيقة التّربيّة، وبأهميّة الأهداف التي ينبغي الوصول إليها، وبقدر وفرة العوامل المعينة على تبنّي هذا النهج في التّربية والتّوجيه؟

مهما يكن التّأويل الذي نعطيه لهذه الفكرة، التي يريد الشّيخ تقريرها وتقديمها لنا، وتثبيتها في أذهاننا، فإنّنا نسجّل: إنّه كان حريصا على بيان أنّ التّاريخ وسيلة نفسيّة مهمّة في التّربية، تحتاج إلى أساليب متنّوعة ومتعدّدة؛ لكي نُفيد منه.لا نستطيع أن نحكم على هذه الفكرة بالتّناقض، أو أن نصدر فيها حكمًا خاصًّا. ما دامت آراؤه بصفة عامّة لم تدرس بعد دراسة معمّقة.

التّاريخ والذّاكرة

ممّا ركّز عليه الشّيخ كثيرا في مجال التّاريخ قوّة الذّاكرة، التي تتقوّى وتنمو بفضل التّاريخ، وما يتّصل به. هذه الذّاكرة التي لا بدّ منها في حياة الإنسان، وإلاّ كانت (هذه الحياة) مضطربة ومشوّشة، وغير طبيعيّة.

ينطلق الشّيخ من منطلق أنّ التّاريخ أصعب الفنون رسوخا في الذّاكرة؛ لذا يجب أن نتّبع معها سبلا وطرقا، تمكّننا من المحافظة على ما يقدّم لها من المسائل التّاريخيّة، أو يُستودَع فيها من الواقعات والذّكريات، حتّى يُفادَ من هذه الذّكريات في الوقت المناسب؛ حين استدعائها. يرى الشّيخ أن ذلك يستلزم شروطًا هي:

- الانتباه القويّ و الملاحظة التامّة.
- الحماسة التي يورّثها المربّي في نفس التّلميذ، وهو ما يساعده على الانتباه.
- كثرة الرّوابط بين الحقائق التّاريخيّة. هذا العامل يعين على ترسيخ المسائل في الذّاكرة؛ لأنّه يكوّن بينها وشائج قويّة؛ إذ استدعاء

حقيقة واحدة يجرّ معها حقيقة ثانية فثالثة من باب تداعي المعاني المعروف في علم النّفس التّربوي. هذا التّداعي يستلزم تكرار المعلومات أو الحقائق؛ ممّا يساعدها على الرّسوخ والثّبات في الذّاكرة.

غير أنّ الشّيخ يشترط للنّجاح في هذا الرّبط وتكوين هذه الوشائج بين الحقائق أن يكون المربّي – الذي يوظّف التّاريخ في عمله التّربوي- عالما بكلّ فصول التّاريخ الذي يقدّمه، عارفا بكلّ أبوابه: " أمّا من ينقل الدّرس من الكتاب فيردّده كالحاكي، وينفث به كالرّاقي ثمّ ينساه، فإنّه لا يستطيع هذا الرّبط الذي هو أساس رسوخ العلوم في الحافظة."[83]

بطريقة ذكيّة ولفتة جدّ مهمّة ينطلق الشّيخ من هذه الملاحظة، ويستغلّ هذه الفكرة ليستروح التّاريخ ونفحاته، فيذكّر المربّين بواجبهم التّربوي:"إنّ باب تداعي المعاني في كتب علم النّفس التّربويّة، وباب الذّاكرة والحافظة ممّا يفرض على كلّ معلّم أن يدرسه، مع ما يجب عليه من

83- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، ص: 25.

دراسة كتب علم النّفس التّربوي وكتب التّربية والتّعليم."[84]

هذه الشّروط التي قدّمها الشّيخ للتّمتع بذاكرة قويّة، تسهم في الإفادة من التّاريخ، تشير إلى الأهميّة التي يجب أن يوليها الشّخص لعمليّة تحصيل المعلومات وتركيزها في الحافظة؛ إذ عليها يتوقّف استرجاعها؛ لأنّ الشّخص لا يسترجع من ذكريّاته، إلاّ ما يلائم ميوله وحالاته النّفسيّة: "لأنّ التّذكّر معناه القيام بعمليّة اختيار وانتقاء، تبعا لاهتمامنا ومقتضياتنا الاجتماعيّة الرّاهنة، ومعنى هذا أنّ ما يلائمنا في هذه اللّحظة قد لا يلائمنا في اللّحظة التي تليها، وهكذا نفهم اختفاء الذّكريات في حالة عدم احتياجنا إليها."[85]

هذه الحالة تتطلّب عمليّة سابقة، أشار إليها محمد علي دبّوز، تتمثّل في التّركيز والانتباه والاهتمام بالموضوع والحماسة له، والتّأثر به. يقول الأستاذ جمال الدّين بوقلي حسن:"والمؤاخذة التي توجّه إلى الذّاكرة في حالات النّسيان الطّبيعي لَمؤاخذةٌ تريد من الذّاكرة أن تؤدّي وظيفة

84- المصدر نفسه.

85- قضايا فلسفيّة، ص: 325.

اجتماعيّة أكثر منها نفسيّة. فالنّسيان استجابة طبيعيّة كبقيّة الحوادث السّيكولوجيّة؛ من إدراك وتخيّل وعاطفة. وإذا كانت هذه الاستجابات فاشلة وغير موفّقة من النّاحية الاجتماعيّة وفي أعين النّظرة البراغماتيّة، فإنّها من النّاحية السّيكولوجيّة تكشف عن مدى قدرة الشّخص في وضعيّته الحاليّة على استخدام ماضيه للتّلاؤم مع المطالب الجديدة التي يواجهها."[86]

86– المرجع السّابق، ص: 326.

الخاتمة

هذا عرض أوّلِي مقتضب لبعض آراء أستاذنا المؤرّخ الجزائري الشّيخ محمد عليّ دبّوز في التّاريخ، حاولنا أن نبرز من خلاله أهمّ الجوانب التي تناولت مفهوم التّاريخ عنده من النّاحيّة النّظريّة؛ اعتمادا على ما ذكره في موسوعته التّاريخيّة المهمّة "تاريخ المغرب الكبير". وقد وجدنا تطبيقا لكثير من هذه الآراء في كتابيه "نهضة الجزائر الحديثة " و"أعلام الإصلاح في الجزائر".

إنّ الوقوف على حقيقة هذه الآراء يحصل حين عرض الجانب التّطبيقي لها، من خلال دراسة ما ورد في الكتابين المذكوربن، ونقدهما.

نقول: إنّ مفهوم التّاريخ عند الشّيخ محمد علي دبّوز دقيق وعميق، يراعي الوظيفة التّربوية للتّاريخ. ويصدر عن الأصول التي ينتمي إليها، وتحكم حياته، وينطلق من الواقع الذي يعيشه النّاس، ويسترفد التّجربة التي عاشها، ومرّ بها، وعاينها؛ ممّن احتكّ بهم، وأفاد من خبراتهم.

لا نجد في هذه الأقوال اجترارا لآراء غيره. بل قد نجد له نظرات خاصّة، تفرّد بها، مستقبل الأيّام والدّراسات المقبلة تثبت هذا أو تنفيه.

عمدنا في هذه الدّراسة إلى ربط آرائه بالعوامل التي دفعت به إلى تقرير بعض الحقائق، وبالبيئة التي ساقته إلى إصدار بعض الأحكام، التي قد يرى فيها بعض الدّارسين شططًا أو شذوذًا؛ ممّا هو خارج عن المألوف المتعارف عليه عند عامّة من تعامل مع التّاريخ.

إنّ هذا التّناول من الشّيخ محمد علي دبّوز، والانتقاد ممّن لا يوافقه في كثير ممّا قرّره، وهذا العرض الذي قدّمناه، لا شكّ أنّ كلّ هذا سيثير كثيرًا من القضايا، وسيسيل مزيدًا من الحبر ـ ويفتح حلقات كثيرة للنّقاش والحوار...وهو ما يعطي لهذه الدّراسة التّميّز، لتفسح المجال للدّراسات التي ستعقبها، فتعقّب عليها وتثريها، توافق على ما توافق، وتردّ ما تردّ، وتضيف ما تضيف، وتثير ما تثير من عناصر ليبحث فيها وهو ما نأمله من الدّارسين في أبحاثهم ودراساتهم.

الملاحق

الملحق رقم (1)

كلمة في حقّ أستاذنا الشّيخ محمد علي دبّوز[87]

أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله.

أيّها السّادة الكرام! سلام الله عليكم، وطاب مقامكم.

إنّنا نقف اليوم جميعًا لنكشف عن جوانب من حياة أستاذنا وشيخنا محمد علي دبّوز، بل نتوقّف في بعض المعالم منها، عسانا نعتبر ونتأسّى بهذه الحياة، فنحذو حذوه في العمل الجادّ، والبحث المستمرّ؛ ذلك أنّ أستاذنا كان قد حمل على عاتقه عبئًا ثقيلاً، ورابط من أجل تحقيقه زمنًا طويلاً، تمثّل ذلك في محاولاته تصحيح تاريخ الجزائر والمغرب العربي بصفة عامّة، الذي اعتراه ظلم وإجحاف من

87 – كلمة ألقيت في حفل التّأبين الذي أقامه معهد الحياة في مسجد الشّيخ بابهون بالقرارة يوم: 23/ 03/ 1402هـ الموافق لـــ 19/ 01/ 1982م. وكان لي الشّرف أن أكون منشّط الحفل.

المغرضين الذين شوّهوه، والمستعمرين الذين عملوا على طمسه، وإبعاد أبنائه عنه؛ حتّى يقضوا على شخصيّتهم بعد أن يسلخوهم من أصولهم، ويرموا بهم بين أحضانهم.

عمل أستاذنا - بدافع من هذا الصّنيع المشين – جاهدًا محتسبًا أجره عند ربّه، من أجل الكشف عن الأغاليط، والرّدّ على الافتراءات، وفضح المؤامرات، التي كانت تحاك ضدّ التّاريخ المجيد النّاصع. إيمانًا منه بأنّ بناء الحاضر والمستقبل منوطان بمعرفة الماضي معرفة صحيحة، فلا يمكن لأمّة أن تفرض وجودها، وتضمن بقاءها واستمرارها، إذا ما شُوِّه تاريخها وافتري عليه، ولا يتيسّر للأجيال أن تبقى في النّهج القويم، تترسّم خطى أجدادها وأسلافها، إذا ما جهلت تاريخها. فالشّاعر الثّائر رمضان حمّود يقول: "إذا ما جهلت أمّة تاريخها فقد جهلت مستقبلها، وإذا ما جهلت مستقبلها فقد أسرت نفسها وألقت بها في يد غيرها".

انطلاقًا من هذا المفهوم قام الأستاذ قيام المربّي المحنّك، الذي يعرف دور التّاريخ في تربيّة الأجيال، وتنشئتهم تنشئة، تساعدهم

على النّموّ نموًّا سليمًا من كلّ عقدة، فشمّر عن ساعد الجدّ ليبدأ رحلة طويلة شاقّة في سبيل تحقيق الهدف المنشود.

كانت الرّحلة متعبة ومرهقة، عقّد منها كثرةُ الافتراءات والادّعاءات، وانخداعُ بعض الكتّاب المخلصين بما ألّفه المتعصّبون، فردّدوا –عن حسن نيّة – ما قال هؤلاء، فكانت الأجيال النّاشئة هي الضّحية. وصعَّب من المهمّة قلّةُ المصادر المكتوبة، التي يُطمأنّ إليها، والجهلُ والغموض اللّذان اكتنفا بعض الفترات من تاريخ الجزائر على الخصوص...فكانت لذلك مصادر شيخنا بشريّة في الدّرجة الأولى، ووثائقَ وكتبًا مخطوطة، ورسائل متبادلة مخزونة في المكاتب الخاصّة، ومضروبًا عليها بأسوار من حديد، ومخفيّة عن العيون، لا تصل إليها الأيدي إلاّ بعد جهد جهيد، ومحاولات متكرّرة ملحّة في الطّلب، كما كانت دائرة بحثه واسعة، تتوزّع بين القاهرة وتونس والجزائر شمالها وجنوبها. فكان على الأستاذ أن يكثر التّجوال والتّرحال، ويطيل المكوث في المكتبات الخاصّة والعامّة، ويديم الجلوس إلى الأساتذة والمشايخ، وكلّ من شارك في الأحداث أو عاصرها..

في كلّ ذلك كان مستفسرًا وباحثًا ومنقّبًا في المخطوطات

والمطبوعات، مستنطقًا الوثائق، مسترشدًا بالمكاتبات والمراسلات الخاصّة، مقارنًا بنفسيّة المؤرّخ المدقّق الباحث عن الحقيقة، تحدوه في كلّ ذلك إرادة وعزيمة قويّة، لم يفتّ في عضده المشاكلُ والصّعوبات، ويدفعه إلى القيام بالواجب إخلاصٌ كبير لأمّته وأمجاده، حتّى تمكّن من إخراج كتابه القيّم:"تاريخ المغرب الكبير"، الذي كان له صدى كبير في الأوساط العامّة والخاصّة، فقد استقبل أحسن استقبال؛ إذْ كتبت عنه الصّحف والمجلاّت في مختلف أقطار الوطن العربي، وتحدّثت عنه الإذاعات، وقرّظته، ونوّهت به وبأهمّيته.

وقد استطاع أن يحتلّ صدارة المراجع التي يعتمد عليها في كتابة تاريخ المغرب الكبير؛ لما يتّصف به من عمق في تحليل الأحداث، وتدقيق في سرد الحقائق، وبراعة في الإبانة عن مكامن النّفوس، وجودة في الأسلوب. وقد أظهره للنّاس في ثوب قشيب: في أسلوب أدبي، يغري القارئ لمتابعة قراءته، ويجلب السّامع لمسايرته.

في الغرض نفسه أصدر كتابيه: "نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة" و"أعلام الإصلاح في الجزائر"، أرّخ فيهما النّهضةَ

الجزائريّة، فتحدّث عن عواملها ومظاهرها، من جمعيّات إصلاحيّة، ومدارس ومعاهد تعليميّة، وزوايا دينيّة، وجمعيّات خيريّة وثقافيّة، ونوادٍ أدبيّة، ومؤسّسات اجتماعيّة، وغير ذلك. كما خصّ بعض الزّعماء والأعلام الذين كانت لهم إسهامات مهمّة، أو أدوار أساسيّة في تلك النّهضة والإصلاح، فتتبّع حياتهم بشيء من التّفصيل الدّقيق، وأعمالهم بالتّحليل العميق، في مختلف المجالات والأصعدة؛ مسجّلا وبطريقة مطوّلة ومستفيضة الأطوار التي مرّت بها حياتهم، معلّقًا على الظّروف التي تقلّبوا فيها، شارحًا مواقفهم المشرّفة، وغير ذلك.

بهذه الأعمال يكون الشّيخ قد قدّم للأجيال خدمة لن تنسى، وأنار لهم الطّريق، فقرّبهم من تاريخهم، بعد أن أَبْعَدَ عنه ما شوّهه؛ ممّا نسبه إليه المغرضون ظلمًا وعدوانًا. فهلاّ عرفنا نحن قيمة هذه المجهودات المبذولة؟ ووعينا حقًّا الصّعوبات التي كانت عقبات كأداء في طريق أستاذنا؟

إذا كان هو قد ذهب إلى ربّه قرير العين، مرتاح الضّمير، وقد أدّى ما عليه، وقدّم للأجيال تاريخهم؛ خاليًا من أباطيل الحسّاد، وأغلاط المغرضين،

وشطحات المستشرقين، وحاول إيقاظ النّفوس الخاملة من سباتها العميق، لتنهض كي تقوم بواجبها نحو تراثها ومجد آبائها. فهلاّ اعتبرنا بذلك، واستجبنا للنّداء، ونفضنا غبار الكسل عن أنفسنا، وأفقنا من غفلتنا؟ ونهضنا من رقدتنا لإكمال الطّريق الذي بدأه شيخنا، ومواصلة النّهج الذي سلكه؟ حتّى نَبَرَّه، ونَبَرَّ آباءنا، وننصف تاريخنا، وقبل ذلك نقدّم الخير لأنفسنا، فما ذلك على المجدّين المخلصين ببعيد، وما ذلك على الله بعزيز.

ليعلم المثقّفون أنّ مجتمعهم، حين سمح لهم بارتياد مراكز الثّقافة، والتّردّد على أماكن التّعلّم، كان يرمي إلى تأهيلهم وتكوينهم ليساعدوه في القضاء على المشاكل التي يتخبّط فيها. وهل هناك مشكلة أعظم من تلك التي نجد فيها الأبناء جاهلين لماضيهم؟ وبذلك لا يستطيعون تحديد رؤية واعية للمستقبل، وبعدها عدم معرفة المصير المنتظر. وما الذي يجعلهم يثبتون وجودهم ويقفون أمام الأعاصير الهوجاء، التي تحول بينهم وبين تاريخهم، والتّيارات التي تبعدهم عن أصلهم؟ إنّه لن يكون سوى التّاريخ، الذي يجب أن يعرفوه حقّ المعرفة.

لا ينبغي ولا يجوز أن نترك تاريخنا يمليه علينا غيرنا، كما شاءت له

نفسه، ورضيه هواه؛ لأنّ: "التّاريخ محيي الأمم، وقد يكون قاتلَها إذا شربته من كاس غيرها" كما يقول رمضان حمّود.

يا معشر المثقّفين! آثارنا اندرست، وأدبنا تنوسي، وعظماؤنا أغمط حقّهم، وتراثنا أهمل، وتاريخنا شُوّه، وأبناؤنا ضاعوا في متاهات الجهل، وابتعدوا عن أصولهم؛ بسبب إهمالنا وتقاعسنا عن أداء واجبنا، حتّى قيل عنّا ما قيل: إنّكم لم تكتبوا أدبًا، ولم تشاركوا في نهضة، ولم تسجّلوا تاريخًا...

وبعد ! أفلا تكون لنا من حياة أستاذنا عبر ودروس؟ فإذا كنّا نجهل دور التّاريخ في بناء النّفوس، وتكوين الشّخصيّة، وتحديد المصير، وإذا كنّا لا ندري ما أصاب تاريخنا من تحريف وتزييف، وإذا كنّا لا نعرف الأخطار المحدقة بنا وبأبنائنا وبمستقبلنا؛ نتيجة سكوتنا على عبث العابثين، وكيد الكائدين، وإذا كنّا لا نفقه معنى التّضحيّة في سبيل إرضاء الضّمير، وإذا كنّا لا نعرف معنى العزم والحزم...فلتكن لنا في حياة أستاذنا، وفي سيرته أجوبة مقنعة، تزيل عنّا كلّ ما ينتاب نفوسنا من شكوك، وكلّ ما يعوقها عن معرفة الحقيقة.

إخواني الباحثين !إذا كانت هناك مآخذ تؤخذ على أستاذنا، سواء في المنهج الذي اتّبعه، أو في المبالغات التي غدت سمة من سمات كتاباته، فلا يكفي أن نتحدّث عنها من وراء الحجب أو الجدر والأقنعة، وإنّما يجب أن نبرز إلى الميدان، ونقدّم أدلّة قاطعة على صدق نيّاتنا، وحرصنا على العمل الجادّ؛ بالبحث والكتابة، وتقديم البديل. أمّا أن نسمع جعجعات ولا نرى طحينًا، فذلك - والله - تثبيط للعزائم وإجهاز على المجهودات.

إخواني! إنّ الدّروس التي نستفيدها من حياة شيخنا، هي الاحتفال الحقيقي بذكراه. ومعاهدة النّفس على العمل والاستجابة لندائه، واستغلال مواهبنا وقدراتنا بما يعود على الأمّة بالخير في سبيل ازدهارها وتقدّمها، هي أحسن هديّة نهديها له في ذكراه، بعد دعائنا أن يتغمّده الله برحمته الواسعة، ويسكنه فسيح جنانه، إنّه سميع مجيب.

محمد بن قاسم ناصر بوحجام

القرارة الجزائر

الملحق رقم (2)

المؤرخ الجزائري محمد علي دبّوز في ذاكرة السّادسة[88]

قيمة الرّجل تكمن فيما قدّمه لأمّته ومجتمعه من أعمال جليلة وخدمات كبيرة، وأسدى إليه من معروف، وتتجلّى فيما خلّفه من تراث، يشهد له بالعظمة، ويحيي ذكره بعد أن يوارى التّراب. لكنّنا نحن البشر ألفنا أن لا نعرف، ولا نعترف بقدر الرّجال إلاّ حين نفتقدهم من بيننا، ولا نقدر للنّعمة قدرها إلاّ بعد زوالها، فالإنسان يظلّ دائمًا كفورًا كنودًا.

اليوم نتوقّف قليلاً للتّعريف برجل عظيم، القليل يعرفه، والأقلّ من يقدره حقّ قدره، إنّه أستاذنا محمد علي دبّوز، هذا الذي قدّم الكثير للأجيال المتلاحقة. أهدى لها تاريخها صافيًا من الأكاذيب والدّسائس، التي كان هدف أصحابها من كلّ ذلك هو إضعاف روح الانتماء إلى الأمّة الإسلاميّة الجزائرية في نفوس النّشء، ومحاولة

88_ نشر المقال في مجلة النّهضة، سلطنة عمان، ع: 363، (09/ 12/ 1987م). وقد أعيد نشره في عدّة أعداد من المجلّة نفسها.

تذويبهم وإدماجهم في الشّخصيّة الأجنبيّة الدّخيلة.

مهّد الطّريق أمام الباحثين والدّارسين للعمل الجادّ، من أجل كتابة تاريخ الجزائر والمغرب العربي، بعد أن نقل كثيرًا من الحقائق من رؤوس المسجّلين لهذا التّاريخ، بمهجهم وأفكارهم وجهودهم، ومن العارفين به حقّ المعرفة، من الوثائق المهمّة الصّحيحة، ومن المخطوطات النّادرة، ومن الرّسائل المتبادلة الخاصّة. وذلك بعد طول مكث في المكتبات، وجلوس إلى الأساتذة والشّيوخ، وتجوال في الأقطار، وصبر على الكشف عمّا تحمله الوثائق من دلالات ومعانٍ، فكان له فضل الرّيادة في الكشف عن كنوز كثير من الحقائق؛ بفضل دأبه وتفانيه ومغامراته الصّعبة النّاجحة في سبيل إقامة تاريخ المغرب الإسلامي على عوده، بعدما أصابه تحريف وتزييف وغمط لحقّه.

قام بذلك كلّه لإيمانه الرّاسخ بأنّ بناء الحاضر والمستقبل مرهونان بمعرفة الماضي، والعمل على تمثّله، وليقينه الثّابت بأنّ الأجيال لا يمكن لها أن تكشف ذاتها الحقيقيّة، وتميّزها عن غيرها، فتبني شخصيّتها، إذا لم تكن لها الثّقة الكاملة بهذا الماضي، ثقة تساعدها على

الاعتزاز به، ومحاولة حمايته، ثمّ الإضافة إليه، حتّى لا توصم بالخمول، فتؤول بعدها إلى الاضمحلال والذّوبان.

نظر الأستاذ إلى التّاريخ المغربي فوجده عبارة عن شطحات المستشرقين، ودسائس المستعمرين، ومكائد المغرضين، فتأكّد لديه وجوب العمل على تصحيح المفاهيم، وتوضيح الحقائق، وجزم أن لا يتولّى ذلك غير أبناء الإسلام، الذين يكنّون له عطفًا وحنينًا، ولا يُترك إلى الأجانب، الذين لا يحسنون سوى وضع السّمّ في الدّسم؛ متمثّلا بقول الشّاعر المناضل رمضان حمّود: "التّاريخ محيْي الأمم، وقد يكون قاتلَها إذا شربته من كأس غيرها ".

لقد برّ الأستاذ بوعده، ونفّذ ما دعا إليه، وأنقذ تاريخ أمّته من الضّياع، وقد استمرّ في هذا العمل الشّاق المضني ما يزيد عن الثّلاثين عامًا، قضاها في الجمع والتّنقيب والمقارنة، بإرادة لا تعرف الملل، وصبر لا يعرف الحدود، فذهب إلى ربّه قرير العين، رحمه الله رحمة واسعة.

إسهامًا منّا في الكشف عن جوانب من حياة الشّيخ محمد علي دبّوز، ارتأينا اطلاع القارئ على بعض آرائه في التّاريخ، وكيفيّة

التّعامل معه، وطريقة تقديمه للأجيال لتستفيد منه؛ عسى هذه الإلمامة السّريعة أن تساعد المجدّ المخلص ليتبيّن طريقه، ويعرف واجبه نحو مجتمعه، ليكمل النّهج الذي بدأه أستاذنا، واختطّه بعزيمته وإرادته.

آمن أستاذنا محمد علي دبّوز بأنّ التّاريخ وسيلة تربويّة ناجحة، تساعد الأجيال على السّير في الطّريق، الذي رسمه الأجداد، وعمل جاهدًا لتثبيت هذه الحقيقة في نفوس المربّين القائمين بمسؤوليّة الوعظ والإرشاد في الأمّة، وحملهم على الاستفادة من هذه الوسيلة، إذا أرادوا أن ينشئوا الأبناء على النّهج الذي يريدونه، ويحقّقوا الأهداف التي يصبون إليها؛ لأنّ التّربيّة كما يقول الشّيخ أبو الحسن النّدوي: "وسيلة مهذّبة راقية لدعم العقيدة، ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة، وأفضل تفسير لنظام التّربية: إنّها السّعي الحثيث المتواصل من قبل الآباء والمربّين لتنشئة أبنائهم على الإيمان والعقيدة التي يؤمنون بها، والنّظرة التي ينظرون إلى الحياة والكون من خلالها؛ ليكونوا ورثة صالحين للتّراث الذي ورثه هؤلاء الآباء عن

الأجداد، مع الصّلاحية الكافية للنّهوض والتّطوّر والتّقدّم." [89]

آمن الأستاذ محمد علي دبّوز بأنّ هذا الدّور، يستطيع التّاريخ أن يقوم به، إذا أحسن استغلاله؛ ولهذا راح يبيّن النّتائج الحسنة التي يُتحصَّل عليها من دراسة التّاريخ، فسجّل مجموعة من الملاحظات المهمّة، التي استنتجها من تجربته، ومن خلال تعامله مع التّاريخ، الذي تعشّقه واندمج فيه اندماجًا كليًّا، واعترف بعد ذلك بفضله عليه في توجيهه وتكوينه.

إليك أيّها القارئ الكريم بعضًا من هذه الملاحظات، التي ضمّنها الشّيخ مقدّمة كتابه: "تاريخ المغرب الكبير الجزء الثّاني". كتب تحت عنوان: "فوائد التّاريخ التّربويّة وأثره في نهضة الأمم" [90]، نوجزها فيما يأتي:

- التّاريخ يحفّنا ببيئة اجتماعيّة راقية من أجدادنا فنعاشرهم بأخلاقهم، ونتطبّع بطباعهم.

89 – ينظر مجلّة منار الإسلام، العدد الثّاني، السّنة الثّالثة، دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، صفر 1398ه/ فبراير 1978م، ص: 93.

90 – ينظر تاريخ المغرب الكبير ج2، ص: 13 وما بعدها.

- التّاريخ أكبر عامل في التّربية الخلقية.

- تاريخ أجدادنا هو الذي يؤثّر فينا أكثر، فيجب الاعتناء به،والاعتماد عليه في تربيّتنا في البيوت والمدارس والمجتمع.

- إنّ التّاريخ هو أكبر عامل لبناء الأمم ونهضة الشّعوب، وهو من الوسائل الكبرى في التّربيّة الحسنة، وهو الذي يمكّننا في التّربيّة من اختيار البيئة الاجتماعيّة الصّافيّة الرّاقية، التي نحدث بها الآثار التي نريد في التّلميذ. أمّا البيئة الاجتماعيّة الواقعيّة، فقد لا تطاوعنا ولا نستطيع أن نجد فيها كلّ ما نريد، وإذا وجدنا فإنّه لابدّ أن يشوبه ويقترن به كثير من الأشياء السّيّئة التي لا نريدها، فيتأثّر التّلميذ بها فيتّصف بصفات تضعف أخلاقه الحسنة، وتقلّل نجاحه في الحياة، أمّا في التّاريخ فإنّنا نستطيع اختيار العصور الزّاهرة والشّخصيّات العظيمة، كالرّسول والصّحابة والتّابعين والسّلف الصّالح ورؤساء دولنا وكبار علمائنا، ونختار من التّاريخ ما هو حسن، فنجعله بيئة للتّلميذ، ينغمس فيها ويشغف بها، ويعاشرها بالقراءة اللّذيذة والدّرس العميق، إنّ التّاريخ لهذا أحسن من البيئة الاجتماعيّة

الواقعيّة، التي قد لا نستطيع أن نعزل منها ما لا يرضينا، ولا نجد فيها كلّ المثل العليا التي نريدها.

لعلّ ما لاحظه الأستاذ محمد علي دبوز من الانقلابات، الخطيرة التي حدثت في المحيط الاجتماعي، وما ساده من أخلاق بعيدة عن الرّوح الإسلاميّة، ومن انحرافات، لا تقوى على أن تنشئ لنا أجيالاً مستقيمي السّيرة، يتّصفون بما يتّصف به الرّجال الذين تقوم عليهم مسؤوليّة قيادة الأمّة، وبناء الوطن، إذ يصعب على المربّي انتقاء ما يخدم شخصيّة الطّفل وينمّيها، وصرفه عمّا يهدم فيه مقوّماتها...لعلّ هذا الذي جعله يعتقد أنّنا نستطيع أن نجبر هذا النّقص ونتلافى هذه السّلبيّات بالتّنقيب في ذاكرة الزّمن، وفي أعماق الماضي عن المواقف المشرّفة، وما يكون قدوة للطّفل يساعده على تشكيل شخصيّته وبناء نفسه، فنهيّء له البيئة الحسنة الصّافية الرّاقية، التي يترعرع وينشأ فيها ما دمنا عاجزين عن التّحكّم في البيئة الواقعيّة. وهو رأي له وجاهته ونصيبه من الصّحة؛ إذا نظرنا إليه من جانب التّربيّة والتّوجيه. يبقى للمتخصّصين أن يبدو وجهات نظرهم فيه.

- إنّ التّاريخ أجدى في التّربيّة، وفي غرس الأخلاق الحسنة، ونبذ الأخلاق السّيّئة، من دروس الأخلاق النّظريّة، ومن الوعظ والإرشاد النّظري.

- التّاريخ للاتّعاظ والاعتبار، فيجب أن نقف في هفوات الأجداد، وما أثار الأعاصير عليهم، فنصوّره للأحفاد ونحذّرهم منه.

- التّاريخ للتّربية العقليّة، فيجب أن نعمل فيه عقل التّلميذ كلّ الإعمال، فنكلّفه أن يستنبط من المقدّمات التي سمعها ما تقتضيه من نتيجة.

- إنّ التّاريخ للتّربيّة الصّحيحة، ولبثّ الرّوح القوميّة في الأمّة، وإذكاء الحماسة للمثل العليا في القلوب.

أنت تلاحظ معي – أخي القارئ – أنّ الأستاذ محمد علي دبّوز حرص كلّ الحرص على أن يكون للتّاريخ دور كبير وأساس في بناء النّفوس، وتكوين النّشء، وأن لا يقتصر على السّرد والحكاية ومجرّد الاطّلاع. ولهذا أكّد على وجوب الوقوف على حقيقة التّاريخ وفلسفته؛ حتّى نتمكّن من اتّباع طريقة مجدية، واختيار نهج قويم، وابتكار منهاج صحيح لتقديمه إلى النّاشئة على الخصوص، فيكون لهم عامل اجتذاب، بدل أن يكون عامل

نفور. فأستاذنا يقدّم لنا مجموعة من الملاحظات والإرشادات حول تدريس التّاريخ؛ حتّى يمكن استغلاله استغلالاً حسنًا. فكتب تحت عنوان: "ماذا يشترط في مدرّس التّاريخ؟"، وذكر الصّفات الآتية:

- لكي يؤتي التّاريخ ثماره ونتائجه التّربويّة العظمى، يجب أن تلقّن دروسه بتحليل علمي وروح خطابيّة، وفي أسلوب طليّ.
- يجب أن يتمتّع المدرّس بشخصيّة قويّة؛ حتّى يؤثّر في النّشء، حين تقديم الحقائق التّاريخيّة.
- يجب أن ينبع التّاريخ من أعماقه، متأجّجًا بوجدانه ومن عقله، ممتلئًا بفلسفته، لا من لسانه، فيكون أخبارًا باردة يسردها، وأنباء عتيقة ميّتة يحكيها.
- إنّ المربّي لا يستطيع أن يكون على ذلك الحماس، وعلى تلك الرّوح المؤثّرة القويّة في التّاريخ، إلاّ إذا أتى بدروسه وبمحاضراته في رأسه، لا في كرّاسه.
- لتحقيق النّتائج التّربويّة بالتّاريخ، يجب أن يتحمّس المدرّس والمحاضر المربّي للفضيلة في تاريخ العظماء، ولكلّ الأشياء

الحسنة في الأمّة التي يدرسها، كما يجب أن يمتلئ كرهًا للرّذيلة وللخيانة ورقّة الدّين، ولكلّ الأشياء السّيّئة.

- إنّ التّاريخ فنّ فلسفي، علمي، أدبي، يجب أن لا يسند تدربسه إلاّ للفصحاء، والذين وهبهم الله اقتدارًا في التّعبير، وكانت الشّخصيّة الخطابيّة فيهم قويّة.

أتساءل هنا: كيف يمكن عدُّ التّاريخ فنًّا فلسفيًّا وعلميًّا وأدبيًّا؟ وكيف يمكن أن تجتمع هذه الصّفات في مسمّى واحد؟ لست أدري ماذا يقول زملاؤنا المشتغلون بالتّاريخ في هذا التّعريف؟ فهم من ذوي التّخصّص.[91]

- يجب أن لا يسند تدريس التّاريخ لمن شخصيّته علميّة محضة؛ فإنّه يقتله، ولا تجدي معلوماته الغزيرة فيه، وذاكرته المحشوّة بمادته.[92]

هذه بعض الآراء التي نقلناها عن أستاذنا محمد علي دبّوز في التّاريخ، ودوره في التّربيّة والتّوجيه. وهي تكشف عن تجربة كبيرة في

---

91 – عرّفه في موضع آخر هكذا: "التّاريخ علم أدبي اجتماعي فلسفي"، ينظر أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص: 113.

92 – ينظر تاريخ المغرب الكبير ج2، ص: 23، 24.

والمنهج نفسه يجب أن نسلكه في تحليل الأحداث، ونقد المواقف.

الأستاذ محمد علي دبّوز بصفته مربّيًا وأستاذًا في علم النّفس، ولكونه مؤرخًا، كان ينظر إلى حياة العظماء من زوايا متعدّدة، من خلال معطيات عديدة، وكان يسقط مجموعة من النّظريّات على شخصيّاته، حتّى يحقّق قصده من التّاريخ، من أخذ العبرة، ورسم طريق العمل أمام النّشء.

ربّما تكون هذه الرّغبة والإخلاص منه، قد جعلاه يسرف أحيانًا في نقل الحقائق، ورواية الأحداث والواقعات والوقائع، ويبالغ في التّقدير والتّصوير، ممّا جعل بعض النّاس يرون في جزء من كتاباته حشوًا لا فائدة منه.

2 – تقديم دروس التّاريخ في أسلوب أدبي، وتحليل عميق، وبلهجة خطابيّة مؤثّرة، لتحقيق الهدف المرجوّ منه وهو التّربيّة والتّوجيه، فرغب في تقديمه في حلّة قشيبة، تجلب النّاس إليه، وتقرّبهم منه، وفي تلقينه بطريقة تؤثّر فيهم وتحمّسهم لمزيد من الاطّلاع عليه؛ بغية الاستفادة منه، لأنّه لو قدّم بغير هذه الطّريقة –

حسب نظره – لغدا سردًا للحقائق الحافّة، التي لا يرغب فيها النّاس، لهذا نجده – أحيانًا – يسرف في إيراد التّشبيهات، ويغرق في تقديم الصّور الشّعريّة، ويبعد في التّحليق في أجواء الأدب الرّفيع؛ وذلك بحكم نشأته الأدبيّة، واحتكاكه بكبار الأدباء، والهيام بما أنتجوه وأبدعوا فيه، وتأثير ذلك في نفسه. ولما يمتاز به من خفّة الرّوح وميل إلى الظّرف والنّكتة، فرأى أن يقدّم حقائق التّاريخ بهذا الأسلوب الطليّ، حتّى يزيل عن النّفس الكآبة والابتئاس، اللّذين ينتابان من يقرأ أو يسمع عن الأحداث الدّمويّة والدّامية، ولهذا – أيضًا – حرّم إسناد تدريسه لمن يتميّز بشخصيّة علميّة محضة. اجتهد الأستاذ فأصاب عند بعض، وأخطأ عند آخرين.

3 – محاولة الاستفادة من التّاريخ، وتركيز العناية على جانب الاعتبار والتّأسّي، واستغلال هذا التّاريخ في التّوجيه والتّعامل معه تعاملاً، يكشف عن الاهتمام والوعي. – فحسب رأيه – يجب إظهار علامات الإعجاب والرّضا، إذا كان الموقف يتطلّب ذلك، والتّحمّس للفضيلة والمواقف المشرّفة والعظيمة، وإظهار التّحسّر والتّذمّر والاستنكار للرّذيلة والمواقف المخزية؛ حتّى نركّز حبّ الخير

في النّشء، ونقضي على دواعي الشّرّ والرّذيلة فيه.

ربّما يستنكر مثل هده التّعاطف، وهذا التّعامل مع التّاريخ بعضُ المهتمّين به؛ لاشتراطهم الموضوعيّة في نقل الأحداث. نقول لهؤلاء: إذا سلّمنا لأستاذنا ووافقناه في اعتقاده بأنّ التّاريخ وسيلة تربويّة، ووعينا معنى التّربيّة، وجب أن نقرّه على هذا النّهج، ونؤيّد رأيه، ونسهم معه في هذا السّبيل، أمّا إذا كان لنا رأي غير هذا، فيجب أن نكشف عنه. فأحمد شوقي نفسه يقول:

وإذا فاتَك التفاتٌ إلى المـــــا ضي فقد غاب عنك وجهُ التّأسي

هذه إلمامة سريعة وخاطفة بآراء أستاذنا محمد علي دبّوز حول التّاريخ، عرضناها من دون مناقشة. وكان قصدنا من ذلك اطلاع القارئ العزيز على إسهامات شيخنا، إذ ربّما سنحت الفرصة لنا أو لغيرنا لدراسة هذه الآراء، ومناقشة غيرها، ممّا نقل عنه.

أخيرًا أرجو من مثقّفينا وطلاّبنا الذين سيتناولون كتابات أستاذنا محمد علي دبّوز بالدّراسة والتّحليل والنّقد، أن يعوا جيّدًا الملاحظات التي ذكرناها، ويفهموا الأسس التي انطلق منها في كتاباته، ويناقشوه

مناقشة علميّة، ويقدّموا آراءهم حول ما كتب بنزاهة وصدق نيّة وإخلاص في الكشف عن الأخطاء التي وقع فيها، ويحاولوا تقديم البديل عمّا يرونه نقصًا، وأن يبرزوا إلى الميدان لسدّ كلّ ثغرة، قد تدخل الرّيح السّموم، فتعكّر الصّفو، وتنغّص الحياة، بدل أن تدخل النّور ليستضيء به من هو في حاجة إليه، كما أرجو أن يقفوا عند المحاسن وقوفهم عند الأخطاء؛ فيغدو عملهم نقدًا يبني ويشجّع، لا انتقادًا يهدم ويثبّط العزائم.

اختم هذه الخواطر بما قاله عنه زميله الأستاذ حمو بن عمر فخّار (ت 1426ه/ 2005م) في حفل تأبين الشّيخ محمد علي دبّوز، الذي أقامه معهد الحياة في القرارة يوم:23/ 03/ 1402هـ الموافق لـ 19/ 01/ 1982م: "...وبعد، ماذا عسى يقول النّقاد في نتاجه الفكري، وقد خلا لهم الجوّ بموته؟ وبأيّ نوعٍ ومقدار من جهده سيضطلعون؟ لقد علمت أنّهم في الخفاء يهمسون فيما يهمسون أنّه لا منهجيّة له في البحث، وأنّه كحاطب ليل، يجمع البعرة إلى الدّرّة، وأنّه مهلهل الأسلوب، وأنّه يسهب فيما لا طائل تحته.

هب أنّها هنات لا مبرّر لها، فهل كان محمد علي دبّوز بدعًا من كتّاب البشر، ألا يشفع له أنّه كان أمينًا فيما روى؟ شجاعًا فيما دوّن؟ صادقًا فيما أذاع؟ مقدامًا جريئًا فيما خطّ من طريق لم يُسبَق إليه، لمن يريد الاقتداء؟ سخيًّا كريمًا بما جمع من مواد أوّلية لمن يحسن صوغها في قوالب جديدة، ينتفع بمبرّاتها؟ إنّي أتخيّله بأزائي الآن يهزّ رأسه، وينشد مع أبي فراس قوله:

سيذكرني قومـي إذا جدّ جدُّهـم | وفي اللّيلة الظّلماء يفتـقد البــدر
فلو سدّ غيري ما سددتُ اكتفوا به | وما كان يغلو التّبر لو نفق الصُّفر

ويخيّل إليّ أنَّ أغلب ناقديه سوف يكونون جدَّ مغتبطين، لو كان شرّفهم بالذّكر في أحد مؤلّفاته...

أرجو أن يقول النّقاد خيرًا، وأن يتحلّوا بروح الأناة والرّوية في إصدار الأحكام. رحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جنانه.

محمد بن قاسم ناصر بوحجام

معهد الحياة القرارة الجزائر

الملحق رقم (3)

الذّكرى العاشرة لوفاة شيخنا الفاضل محمد علي دبّوز:

اهتمّ الشّيخ محمد علي دبّوز – رحمه الله – بالتّاريخ الإسلامي، وأولاه عناية كبيرة: جمعًا لمادته، وتدريسًا له، وتقديمه للنّاشئة تقديمًا، مبنيًّا على قواعد من أصول التّربيّة وعلم النّفس، ومبادئ الشّريعة الإسلاميّة، وتصحيحًا لكثير من الأخطاء التي ارتكبها في حقّه أبناؤه المنتسبون إليه، وردًّا للشّبهات التي ألحقها المغرضون والأفّاكون الحاقدون على الإسلام. لهذا عُني كثيرًا بالجانب التّربوي في التّاريخ بصفة عامّة. وسلّط الأضواء على الجانب النّفسي فيه. نبّه إلى مكامن الاتّعاظ والتّأسّي فيه، وأشار إلى عوامل بناء الشّخصيّة، وبناء الوطنيّة من التّاريخ.

كما ألمح إلى دوره في بعث الثّقة في النّفس، وإزالة العقد النّفسيّة التي يزرعها – عادة – الأعداءُ في النّفوس؛ حيث يزيّفون الحقائق، ويشوّهون الوقائع، إلى غير ذلك من العناصر العامّة، التي يجب أن يلتفت إليها كلّ من أراد الاستفادة من التّاريخ، في مجال الإعداد والتّكوين.

نحن إذ نحتفل بذكرى وفاته العاشرة (1981 – 1991م) يفرض علينا الواجب أن نقدّم هذه السّطور القليلة عن جهاد هذا الدّاعية الكبير لقرّائنا الأعزّاء، مشيرين إلى نقطة واحدة.

ممّا تناوله الشّيخ محمد علي دبّوز في نظرته إلى التّاريخ الجانب التّربوي فيه. التّاريخ في مفهومه وسيلة تربويّة مهمّة وضرورية، بل المنطلق والمنتهى عنده – حين الحديث عن التّاريخ – هما التّربية. فمن النّاحية النّظريّة أناره بمجموعة من النّظريات والنّظرات والآراء، تكشف عن حقيقته ومزاياه، وضرورة الاحتفاء والاعتناء به؛ عاملاً مهمًّا وأساسيًا في التّربيّة. ومن النّاحية التّطبيقيّة، قدّم له صورًا عمليّة وحيّة، جسّد فيها هذه الآراء والنّظريات، من خلال شخصيّاته التّاريخيّة التي أرّخها، وتعامل معها.

يقول الشّيخ محمد علي دبّوز: " إنّ التّاريخ هو الفنّ العظيم الذي حرمنا الاستعمار البغيض منه، وحرّمه علينا، فيجب أن نبادر بعد استقلال المغرب، فنأخذ حظّنا منه، وننتفع به في تربيّة الأجيال القادمة ".

يبدي الشّيخ تحسّره من حرمان الأجيال من مقوّم أساسي من مقوّمات الشّخصيّة، ومن ركيزة مهمّة من ركائز التّربيّة والتّوجيه. لهذا نادى في بداية استقلال الجزائر بضرورة الالتفات إلى التّاريخ، والأخذ منه بسبب ونصيب، يجبر النّقص الذي كانت تعاني منه التّربية، تحت هيمنة استعماريّة غاشمة، وتوجيه صليبي حقود.

هو لهذا يرى أنّ تاريخ الإسلام - وتاريخ المغرب جزء منه – هو الغذاء الصّحيح اللاّزم لتربية النّشء: "... ولكنَ كتاب المغرب هو الذي يرى العالمُ فيه حقيقته، وهو قبل هذا الغذاء الصّحيح اللاّزم لنشئنا وأمّتنا، والوسيلة الكبرى لتربيّة المجتمع، وتوجيهه إلى المثل العليا، التي كابدنا طويلاً وجاهدنا الاستعمار من أجلها.".

ممّا يؤكّد ارتباط حقيقة التّاريخ بالتّربيّة في نظر الشّيخ محمد علي دبّوز أنّ الدّارس يلاحظ تردّد عبارات كثيرة ومكرّرة في آثاره وأقواله، تكشف عن الدّور التّربوي للتّاريخ. المتصفّح لكتبه يلتقي مع العبارات الآتية:

- التّاريخ أكبر وسيلة للتّربيّة العقليّة.

- إنّ التّاريخ للتّربية الصّحيحة، ولبثّ الرّوح القوميّة.

- إنّ التّاريخ أجدى في التّربيّة من دروس الوعظ والأخلاق النّظريّة.

- هو من الوسائل الكبرى في التّربيّة الحسنة.

- لنحقّق النّتائج التّربويّة بالتّاريخ.

- "إنّ التّاريخ أكبر عامل في التّربيّة الخلقيّة، وأقوى سبب يخلق الأخلاق العظيمة في النّفوس. والأخلاقُ العظيمة هي أساس رقيّ الإنسان في عقله، وفي جسمه، فهي التي تستتبع كلّ المزايا، وتقتضي تفوّقنا في كلّ النّواحي..."

يكشف هذا النّصّ عن الدّور الكبير الذي يعطيه محمد علي دبّوز للتّاريخ. فمن المقدّمات التي رتّب بعضها على بعض، والنّتائج التي وصل إليها، يتبيّن لنا الدّور الرّائد والأساس للتّاريخ في مجال التّربيّة: التّاريخ أكبر عامل في التّربية، وأقوى سبب يكسب الأخلاق الحسنة، الأخلاق تُسبِّب رقيّ الإنسان في عقله وجسمه، الأخلاق تستدعي

وتجلب كلّ الخصائص والمميّزات الأخرى. هذه المكاسب توصل إلى التّفوّق في النّواحي الأخرى، إلى غير ذلك من سلسلة النّتائج الحسنة، التي يشدّ بعضها برقاب بعض، ويكون التّاريخ هو المتسبّب فيها.

الشّيخ يقرن كثيرًا بين لفظتي (المربّي والتّاريخ)، ويربط بين مدلولاتهما ربطًا محكمًا؛ ليثبت أنّ التّاريخ للتّربية أساسًا. تردّدت في كتبه العبارات الآتية: (يجب على المربّي في درس التّاريخ. إنّ المربّي لا يستطيع أن يكون على ذلك الحماس، وعلى تلك الرّوح المؤثّرة في التّاريخ. الذي يؤثره المربّي في نفس التّلميذ بدرس التّاريخ).

إذا كان للتّاريخ هذا الدّور التّربوي المهمّ، فما هي نظرات الشّيخ محمد علي دبّوز؟ وما هي آراؤه فيه؟ التّاريخ هو الذي يحفّنا ببيئة اجتماعية راقية من أجدادنا، فنعاشرهم ونتأثّر بأخلاقهم، ونتطبّع بطباعهم، وذلك من خلال اطّلاعنا على ما خلّفوه من تراث، يتمثّل في قيمهم. وسلوكهم وأخلاقهم، وما سجّلوه من مواقف، وما تركوه من آثار أدبيّة وفكريّة، تتضمّن آراءَهم ونظراتهم في الحياة والكون، وإلى حقيقة العمل والسّلوك في خطبهم ووصاياهم ورسائلهم وأحاديثهم.

ما دام للتّاريخ هذه المكانة وهذا الدّور، فهو الذي يسعى إلى توجيهنا إذن. كما يقول الشّيخ محمد علي دبّوز: "فيكُونُ وجدانًا لنا، يذكي فينا الحماس لمثلهم العليا، فنعمل لتحقيقها، والرّغبة في طريقتهم المثلى، وفي نهجهم القويم، فنتمسّك به، ونندفع فيه، فنصل الدّرجة الرّاقية، التي كان عليها الأجداد، ونكون مثلهم في العزّة والإباء، وفي الطّموح والمحاولة، وفي العمل والكدّ، وفي الإخلاص والإتقان، وفي العمل لله.وتلك هي أسباب النّجاح والتّفوّق، وعوامل القوّة والتّقدّم".

بالتأمّل في هذه النّظرة وهذا التّقرير، نكتشف حرص الشّيخ الكبير على إعداد الشّخصيّة القويّة والمتماسكة، التي تقوى على المجابهة والمقاومة. ومن بعدها تتمكّن من المحافظة على أصالتها، وعلى قوّتها وجدارتها في ضمان البقاء، بل الاستمراريّة في التّطوّر والتّقدّم.

لهذه الغايات التّربويّة التي تتحقّق بالتّاريخ، يقول محمد علي دبّوز عن الصّفات التي يكتسبها الشّخص من البيئة الاجتماعيّة الرّاقية من تاريخ السّلف: "ولا يتّصف بها إنسان إلاّ تغيّر حاله، وتبوّأ

أرفع الدّرجات في كلّ النّواحي، وكان الله معه ليحقّق له كلّ الآمال، فيكون هو السّيّد الذي يسود غيره، والذّروة التي تشمخ على سواها، فلا يستطيع عدوّ كاشح أن يخضعه، ولا لصّ مخاتل أن يحتلّ داره، ولا مستعمر غشوم أن يتسلّط عليه".

من هذه العبارات الواردة في النّصّ يتبيّن لنا أنّ الشّيخ يعتمد اعتمادًا كبيرًا على التّاريخ لحماية الكيان، والمحافظة على الشّخصيّة، وردّ العدوان عنها. وقد انطلق في هذا من حقيقتين:

1 – إنّ الإنسان مركّب من غرائز، وميول فطرية، مثل غريزة حبّ الظّهور والتّقليد والخوف والمشاركة الوجدانية. هذه الغرائز الفطريّة هي أساس تربيّة الفرد، وأخلاقه، وتغيّره، وتطوّره، وبلوغه. وتطبّعه بطابعها، حسب ما يجده الفرد من توجيه خاصّ، وإمكانات لتهذيب تلك الغرائز، وتلك الميول الفطريّة. فإذا ما أسيء توجيهها نشأ الإنسان منحرفًا، على طريقة من يختلط بهم ويعاشرهم، ويكون نسخة ممّن نشأ معهم، وتأثّر بهم؛ لأنّ التّوجيه كان خاطئًا، والإمكانات المسخّرة كانت غير صالحة، بينما البيئة التّاريخيّة يمكنها تعويض تلك النّقائص.

يتأكّد رأي الشّيخ محمد علي دبّوز بما قرّره بعض الدّارسين من أنّ على المؤرّخ تقع مسؤوليّة كبيرة في الاتّجاه الذي يجب أن تسير فيه الأمّة، يقول الدّكتور فاروق عمر: "فالمؤرّخ أيّ مؤرّخ ينتمي إلى أمّة، عليه أن يكون مخلصًا لأمّته مواليًا لها، مثل ولائه للحقيقة وللإنسانيّة، وعلى المؤرّخ تقع مسؤوليّة تبصير مواطنيه بقضاياهم المصيريّة، والأزمات المرتقبة، وأن يقف إلى جانب أمّته منذرًا ومبشّرًا ومشجّعًا".

2 – ما لاحظه الشّيخ من هجوم الأعداء الحاقدين على الشّخصيّة الإسلاميّة، وما لمسه من استهانة أبنائها بها، الذين لم يشربوا حبّها، ولم يدركوا حقيقتها. وما رآه من التّشكيك في أصالتها، من بعض مهزوزي الوجدان، ورقيقي الإيمان، وضعيفي الوطنيّة... فخاف على هذه الشّخصيّة أن تتفكّك وتنهار، إن اعتمد فيها على البيئة الواقعيّة الموبوءة، أو غير القادرة على حماية هذه الشّخصيّة، وتعزيز مكانتها في نفوس المنتمين إليها، لذلك حذّر من العدوّ الكاشح، واللّصّ المخاتل، والمستعمر الغشوم أن يتسلّط عليها، وذلك باللّجوء إلى البيئة التّاريخيّة، التي تفوّت الفرصة على هؤلاء، عوضًا عن البيئة الاجتماعيّة الواقعيّة التي تكون عاجزة – غالبًا– عن القيام بهذا

الدّور، بل أحيانًا يشوبها ويقترن بها كثير ممّا يضعف أخلاق الفرد، ويقلّل من نجاحه في الحياة.

إذًا يجب الاعتناء بالتّاريخ في البيوت، والمدارس، والمجتمع؛ فبه نستطيع كما يقول محمد علي دبّوز:"اختيار العصور الزّاهرة والشّخصيّات العظيمة، كالرّسول والصّحابة والتّابعين والسّلف الصّالح، ورؤساء دولنا، وكبار علمائنا، ونختار من التّاريخ ما هو حسن، فنجعله بيئة للتّلميذ، ينغمس فيها، ويشغف بها، ويعاشرها بالقراءة اللّذيذة، والدّرس العميق. إنّ هَذا أحسن من البيئة الاجتماعيّة الواقعيّة، التي قد لا نستطيع أن نعزل منها ما لا يرضينا، ولا نجد فيها كلّ المثل العليا التي نريدها."

إنّ الشّيخ يقتدي – في هذا السّبيل – بالقرآن الكريم، الذي يعتمد أسلوب القصّ التّاريخي وسيلة من وسائل التّربيّة، فيطلعنا على صبر أيّوب، ويقين إبراهيم، وعفّة يوسف، ونسك عيسى، وعظمة محمد، ويكمل لنا ما يعوز بيئتنا الاجتماعيّة بذلك التّاريخ.

إنّ من شأن تلك الأخلاق التي نستقيها من التّاريخ، ومن سيرة أصحابها التي نكرّرها، ونتأمّل فيها أن تساعدنا على التّربيّة الحسنة؛ بترسيخ تلك الفضائل في نفوسنا، مستفادة من ناسٍ أفاضلَ أخيارٍ، عدواها لا شكّ تنتقل إلينا، فنكون على غرار من نقرأ تاريخهم، وننشأ على منوالهم.

لعلّ ما لاحظه الأستاذ محمد علي دبّوز من الانقلابات الخطيرة التي حدثت في المحيط الاجتماعي، وما ساده من أخلاق بعيدة عن الرّوح الإسلاميّة، وما رآه من انحرافات لا تقوى على أن تنشئ لنا أجيالاً مستقيمي السّيرة، يتّصفون بما يتّصف به الرّجال الذين تقوم عليهم مسؤوليّة قيادة الأمّة، وبناء الوطن؛ إذ يصعب على المربّي انتقاء ما يخدم شخصيّة الطّفل، وينمّيها تنمية سليمة، وصرفُه عمّا يهدم فيه مقوّماتها.

لعلّ هذا هو الذي جعله يعتقد أنّنا نستطيع أن نجبر هذا النّقص، ونتلافى هذه السّلبيّات بالتّنقيب في ذاكرة الزّمن، وفي أعماق الماضي عن المواقف المشرّفة، وما يكون قدوة للطّفل، يساعده على تشكيل شخصيّته، وبناء نفسه، فنهيّء له البيئة الحسنة الصّافية الرّاقية، التي يترعرع وينشأ فيها، ما دمنا عاجزين عن التّحكّم في البيئة الواقعيّة.

هذا رأي له وجاهته ونصيبه من الصّحة، إذا نظرنا إليه من زاوية التّربية والتّوجيه. يبقى للمتخصّصين أن يبدو وجهة نظرهم فيه.

في سبيل الوصول إلى الأهداف التي يصبو إليها الشّيخ محمد علي دبّوز بواسطة التّاريخ – وهي أهداف تربويّة خالصة – ينبّه إلى أمر مهمّ، وهو دراسة الشّخصيّات التّاريخيّة، التي تتوفّر على قيم، وعلى أنماط السّلوك، التي لها دور في مجرى الأحداث التّاريخيّة، ولها تأثير على وتيرة الحياة، وبخاصّة الشّخصيّات الإيجابيّة، ثمّ الوقوف على العوامل التي ساعدت على تكوينها، وإيجادها على تلك الصّورة، للاستفادة من نشاطها، ولرسم طرق الحياة الصّحيحة للأجيال الصّاعدة، مبنيةً على أسس تربويّة تدعمها الخبرة.

لهذا ردّ على الذين يعيبون عليه الإطناب – أحيانًا – في بعض الجوانب، قائلاً: "وقد توسّعت في العوامل التّربويّة التي كوّنت عبقريّة أعلام الإصلاح في الجزائر، وخلقهم العظيم؛ لأنّ التّاريخ للقدوة الحسنة، والموعظة والمعرفة، إنّ الحديث عن العوامل التّربويّة العظيمة، التي كوّنت الشّخصيّة العظيمة في أعلام الإصلاح من أهمّ

ما يجب أن يعتني به المؤرّخ، لأنّها أسرار خفيّة تُنْسَى، لا يستطيع الاهتداء إليها جميع النّاس، وإن كانوا علماء. أمّا جهادهم فخالد في آثارهم المرئية، يستطيع هذا الزّمان والأجيال المقبلة أن تعرفه، ثمّ إنّ بيان العوامل التّربويّة التي كوّنت أعلامنا هو الذي يجعلنا نأخذ بها، فيكون لأمّتنا دائمًا مثلهم..."

الشّيخ محمد علي دبّوز ليس بدعًا من الباحثين المؤرّخين والمربّين على السّواء، الذين يقرّرون هذه القاعدة، ويرون هذا الرّأي، ويثبتون دور دراسة العوامل التّربويّة في التّوجيه والتّكوين، فالأستاذ "ج. هرنشو" يقرّر بدوره هذه الفكرة. فوجهة نظره تتطابق مع ما ذهب إليه الشّيخ محمد علي دبّوز تمام المطابقة. يقول: "إنّ الوقائع والآثار مغمورة بمحيط من الآراء والإرادات والانفعالات، التي كانت تلك الوقائع والآثار معبّرة عنها، أو أثرًا لها، هذه الآراء والإرادات والانفعالات حقائق نهائيّة ثابتة للرّوح البشريّة، وخارجة بالمرّة عن متناول المعاينة المباشرة، حتّى بالإضافة إلى من شهد الوقائع، أو أقيمت بينهم الآثار. والمؤرّخ إنّما يبحث في آخر الأمر عن هذه العوامل الخفيّة، التي تبعث النّاس على العمل، يبحث عن هذه الحقائق الرّوحيّة الخالدة على وجه الزّمن..."

هذه بعض الأقوال والآراء حول الدّور التّربوي للتّاريخ، من وجهة نظر الشّيخ محمد علي دبّوز، نقدّمها لقرّائنا الكرام؛ تنويهًا بشيخنا وأستاذنا، وجهده في تأصيل مفهوم التّاريخ الحقيقي، وتعريف الأجيال الصّاعدة به.

محمد بن قاسم ناصر بوحجام

جامعة باتنة الجزائر

المصادر والمراجع

1- دبّوز، محمد علي (شيخ)

أ - تاريخ المغرب الكبير، الجزء الأوّل، الطّبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1384هـ / 1964م.

ب - تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّاني، الطّبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1382هـ/ 1963م.

ج - تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثّالث، الطّبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1383هـ/ 1963م.

د - أعلام الإصلاح في الجزائر (من عام 1340هـ/ 1921م إلى عام 1395م/ 1975م)، الجزء الأوّل، الطّبعة الأولى، مطبعة البعث، قسنطينة،الجزائر، 1394ه/ 1974م.

هـ أعلام الإصلاح في الجزائر (من عام 1340هـ/ 1921م إلى عام 1395هـ/ 1975م)، الجزء الثّاني، الطّبعة الأولى، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1396هـ/ 1976م.

و - أعلام الإصلاح في الجزائر (من عام 1340هـ/ 1921 م إلى عام 1375هـ/ 1995م)، الجزالثّالث، الطّبعة الأولى، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر1396هـ/ 1976م.

2- الجندي، أنور، الفكر والثّقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، المكتبة العربيّة، القاهرة،1385هـ/ 1965م.

3- حسن،جمال الدّين بوقلي، قضايا فلسفيّة، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1399هـ/ 1979م.

4- الخالدي، طريف (دكتور)، بحث في مفهوم التّاريخ ومنهجه، الطّبعة الأولى، تشرين الثّاني (نوفمبر)، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت 1982م.

5- الخرفي، صالح (دكتور) الشّعر الجزائري، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع الجزائر، (د،ت).

6- سعادة، يوسف جعفر (دكتور)، دور القراءات الخارجيّة في تدريس التّاريخ، النّاشر مؤسّسة الخليج العربي، القاهرة، 1985م.

7- فاروق ، عمر (دكتور)، التّاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ط2، دار اقرأ، بيروت، لبنان، 1985م.

8- معمّر، علي يحي (شيخ)، الإباضية في موكب التّاريخ، الحلقة الرّابعة(الإباضيّة في الجزائر)، الطّبعة الأولى، مطبعة وهبة، القاهرة، 1979م.

9- ناصر، محمد (دكتور)، رمضان حمّود حياته وآثاره، الطّبعة الثّانية، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1405ه/ 1985م.

10- هرنشو، ج، علم التّاريخ، ترجمة وتعليق عبد الحميد العبّادي.

11- جريدة الشّعب الجزائر، عدد: 5825، (يوم: 02 صفر 1402ه/ 29 نوفمبر 1981م)

12- مجلّة منار الإسلام، الإمارات العربيّة المتّحدة، العدد الخامس، السّنة الثّانية، صفر 1398ه/ فبراير 1978م.

13- مجلّة النّهضة، سلطنة عمان، عدد: 363، يوم: 09 ديسمبر 1987م.

فهرست الموضوعات

إنّ مفهوم الشّيخ محمد علي ديّوز للتّاريخ نابع من تجربته الخاصّة، وممّا أفاده من تربية أولياء أمره له، من والدين ومشايخ وأساتذة، وممّا نقله من تجاربهم في الحياة، وممّا مارسه هو في كتاباته، أيضًا ممّا قرأه في الكتب والمؤلّفات العديدة. وممّا أخذه ولاحظه في البيئات المختلفة التي عاش فيها وتقلّب وتدرّج، وغيرها من المصادر والمنابع المختلفة، لذا فإنّ ما توصّل إليه وقرّره يتّسم بالعمق والواقعية والشّمولية إلى حدّ بعيد، إلى جانب التّميّز في المفهوم.

بما أنّ الشّيخ كان يرى أنّ التّاريخ وسيلة تربوية راقية، تجبر كثيرًا من النّقائص التي تعاني منها الوسائل التّربوية الأخرى فقد ركّزنا في هذا البحث على هذه النّقطة؛ إذ هي البؤرة التي تنصهر فيها آراء الشّيخ في التّاريخ، وهي المحور الذي يُحرّك بالأشعة التي تنطلق منه عجلة العمل التّربوي عنده.

Dépot légal: 2011 - 473
ISBN 978-9947-0-3121-6
9 789947 031216 >